بداية

«ستمضي بالكثير من خيبات الأمل قبل أن تلقنك الحياة درسها الأهم وهو: «أن الحب ومهما بدا رائعًا وجذابًا في البداية إلا أنه شيء لا يمكنك الاتكاء عليه؛ إنه يعرجُ بك نحو السماء السابعة، وعندما يُدرك بأن سقوطك سيكون قاتلًا.. يُفلتك»

لقد سقطتُ من ارتفاع شاهق جدًا.. تهشمت عظامي كُلها، وثُقبت رئتاي حتى أصبحتُ بالكاد أتنفس.. ورغم أنه لم يعد في استطاعتي رؤية الأشياء من حولي إلا أنني استشعرتُ شخصًا ما يقترب مني:

- «إنها فتاة» - قلتُ لنفسي.

فقد كان ذلك واضحًا من خلال الصوت الناعم الخفيف لهزة الخلخال الغجريّ الذي كانت تلفه حول كاحليها..

انحنت عليّ تلك الفتاة أسندت رأسي بكلتا يديها، وجعلت تحدق قليلًا في ملامح وجهي المحطم، كأم تتفقد الجنود المصابين بعد انتهاء المعركة تُفتش بينهم عن ابنها المفقود، قالت:

- وجدتك.. تماسك، سأنقذك!!

سألتها بصعوبة:

- من تكونين؟!

- سأخبرك لاحقًا، المهم لا تمت!!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولأني كنتُ أرجفُ من شدة الحُمى وقسوة البرد؛ فإنها لم تكترث لبقائها أمامي شبه عارية، ونزعت عن جسدها معطف الفرو لتُدثرني به، ثم همست تعاتبني بلطف:

- الأغبياء وحدهم من يثقون بالحب.

في تلك الليلة المُظلمة اعتنت بي الفتاة جيدًا: خاطت لي جروحي العميقة، لفّت بالجبيرة كُل عظامي المُحطمة، ثم أوقدت نارًا في حزمة من الأحطاب؛ كما لو أنها بتلك النار أرادت أن تمنع ذئاب الحنين من مهاجمتي على حين لهفة..

أخيرًا وعندما تأكدت تلك الفتاة من أني أصبحت بخير، وبأني لم أعد في حاجة للمزيد من الرعاية الطبية، فإنها طبعت قبلة مطولة على خدي وابتعدت:

- لحظة إلى أين؟ - استوقفتُها.

- لا تقلق سأعود إليك، فقد أصبحتُ قدرك..

- لماذا قمتِ بإنقاذي؟

- لأسكنك..

- من أنتِ؟

- شيطانتك..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت نبرة صوتها الجادة لا تدع مجالًا للشك بأنها ربما قد تكون فتاة مجنونة أو أنها تمزح..

سألتها بحذر:

- بحق الرب من أنتِ؟!

أجابت كما لو أنها استطاعت قراءة ما يدور في رأسي:

- أنا لست فتاة مجنونة ولا أمزح

- من تكونين إذًا؟!

- أنا شيطانة الكتابة، وقمتُ بإنقاذك لأسكنك..

- ولماذا أنا؟!

ابتسمت ثم قالت وهي تختفي شيئًا فشيئًا:

- لأن شياطين الكتابة لا يسكنون إلا بداخل من هزمهم الحُب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أعدُ نفسي دائمًا بأن أنساك، لكنّي في كل مرة أعود مرغمًا للكتابة

إليك.. هذا القلب خائفٌ جدًّا، ولا شيء غير صوتك بإمكانه

بعث الطُمأنينة فيه..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الباب ما قبل الأول

«العم ميلاد»

تليجرام كتب وروايات
@book_lovers_s

قطاراتنا تتبع نفس المسار

لا وجهة نهائية للحب غير الفراق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

1

الثلاثاء،
العاصمة،
17/ ديسمبر/ 2019

كانت ليلة طويلة وماطرة من شتاءات مدينة الرياض، لا صوت في الأرجاء يقطع الصمت غير حفيف بعض السيارات المسرعة.. القمر مكتملٌ في السماء البعيدة لكنّ غيومًا رمادية كثيفة كانت تحيط به مثل أحفاد صغار يجلسون حول جدتهم يستمعون بدهشة وإصغاء لقصصها الخرافية القديمة..

هناك فوق الرصيف الخالي من المارّة كنتُ أسير وحيدًا، أرتدي بنطالًا ثقيلًا ومعطفًا جلديّ، وألفُّ حول عنقي شالًا من الصوف يقيني هجمات البرد المباغتة..

دخلت عمارة سكنية ذات طراز عتيق، صعدتُ سلالمها المهترئة بأقل ضجيج ممكن؛ لكي لا أوقظ بخطواتي سكانها النائمين، توقفت أمام شقة عُلِّقَ على بابها هذه العبارة:

«سوف تفوتك الحياة، إن لم تقرأ»

- العم ميلاد -

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كبست زر الجرس لأكثر من مرة ولكن لم يفتح لي أحد.. أخرجتُ هاتفي المحمول وطلبتُ رقم العم ميلاد.. فأجابني سريعًا كما لو أنه كان يتوقع اتصالي.. قلتُ له ممازحًا:

- أُصبتَ بالصمم أيها الرجل العجوز؟.. افتح أنا عند الباب

- لستُ في المنزل - ثم أردف مُداعبًا: لقد تركت لك الباب مفتوحًا ألا تراه؟! أم أنك أُصبتَ بالحول أيها الشاب الطريّ؟!

كانت العمارة السكنية من الداخل سيئة الإنارة؛ ربما لهذا لم ألحظ أنّ باب شقته كان مواربًا بالفعل، دفعته بيدي وما أن فُتح حتى أطلقت مفاصله أنّة طويلة متقطعة بدت للحظة وكأنها صوت ضحكة الباب وهو يسخر مني.. قلتُ أبرر للباب خطئي:

- لم أنتبه!!

جاء صوت العم ميلاد في السماعة:

- يجب أن تفتح عينيك جيدًا؛ فالفرص في هذه الحياة لا تشرّع لك أبوابها بل تجعلها لك مواربة.. تمامًا مثل ما كان باب الشقة قبل أن تدفعه بيدك.

- نصيحة جيدة - أجبته وأنا أضع أولى خطواتي داخل شقته الدافئة، وأضفتُ قائلًا: غير أنه كان من الأفضل لو أنك نصحتني بتجفيف ملابسي سريعًا حتى لا يصيبني البرد؛ فأنا مبلل حتى آخري.

- ألا تزال حتى وأنت في هذا العمر تبلل نفسك؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في تلك اللحظة هبّت نسمة هواء أغلقت الباب، فأطلقت مفاصله مع الارتداد أنة سريعة بدت لي كما لو أنّ الباب يعاود السخرية مني مجددًا:

- لم أبلل ملابسي لقد بللها المطر!!

سأل العم ميلاد:

- وهل السماء تمطر فعلًا؟!

من خلال سؤاله ذاك عرفت أنه في مكان مغلق، وإلا لكان عرف من تلقاء نفسه أن السماء تمطر «ربما يكون في زيارة أحدهم».. ولكن لحظة هو لا يملك أقاربَ في مدينة الرياض، وليس لديه أصدقاء هنا غيري:

- أين ذهبت في هذا الليل، أأصبحت عاشقًا على نهاية عمرك؟

- لا اطمئن، فأنا لم أُصب بالخرف بعد

- أين ذهبت إذًا، إنها الثانية فجرًا؟!

- سأخبرك عندما أعود.

- ستتأخر؟

- ليس كثيرًا.

قال ذلك ثم فجأة سمعتُ وقع أقدام شخص يقترب منه.. لم أكن واثقًا في البداية ولكن صوت وقع الأقدام ذاك بدا كما لو أنه يشبه طرق كعب حذاء امرأة..

همس العم ميلاد بعجالة:

- آسف، أنا مضطر لإغلاق الخط..

تليجرام. كتب وروايات
@book_lovers_s

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رغم أنه بات على مشارف السبعين من عمره إلا أنّ حماقات المراهقة كانت لا تزال تحتل كل شبر في جسده، مما يدفعه في كثير من الأحيان لإقحام نفسه في مشاكل لا يستطيع الخروج منها بسهولة.. سألته:

– ما بك، صوتك يرجف هل أنت في ورطة؟!

– لا تقلق أنا بخير – ثم أردف هامسًا وبسرعة من يكتب وصيته الأخيرة: أشعل الدفاية في غرفة الأولاد لكي لا يُصاب أحدهم بالبرد، وأخبرهم بأن والدهم يحبهم كثيرًا..

– لحظة لا تغلق الخط، خطوات من هذه التي تقـ..

لكنه أغلق الخط في وجهي دون أن يعطيني إجابة على سؤالي.. تُرى من عساها تكون تلك التي ذهب العم ميلاد خلسة لرؤيتها في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل؟!

***

ذهبتُ للغرفة التي أجلس معه فيها دائمًا عندما آتي لزيارته.. كانت غرفة واسعة يغطي حيطانها الأربعة خزائن خشبية تحمل على رفوفها الكثير جدًّا من الكتب.. يتوسط تلك الغرفة طاولة صغيرة من خشب الأبنوس الفاخر يعتليها مصباح قراءة، وآلة كتابة عتيقة كان العم ميلاد يحب الكتابة عليها.. سحبت ورقة من حافظة أوراقها وقرأت:

«معكِ كانت الفصول في صدري تنحصر في الربيع، وكانت السماء قريبة منّا للحد الذي كان باستطاعتي فيه أن أرفع يدًا إليها، وأقطف لكِ منها قمرًا أو نجمة أو غيمة»

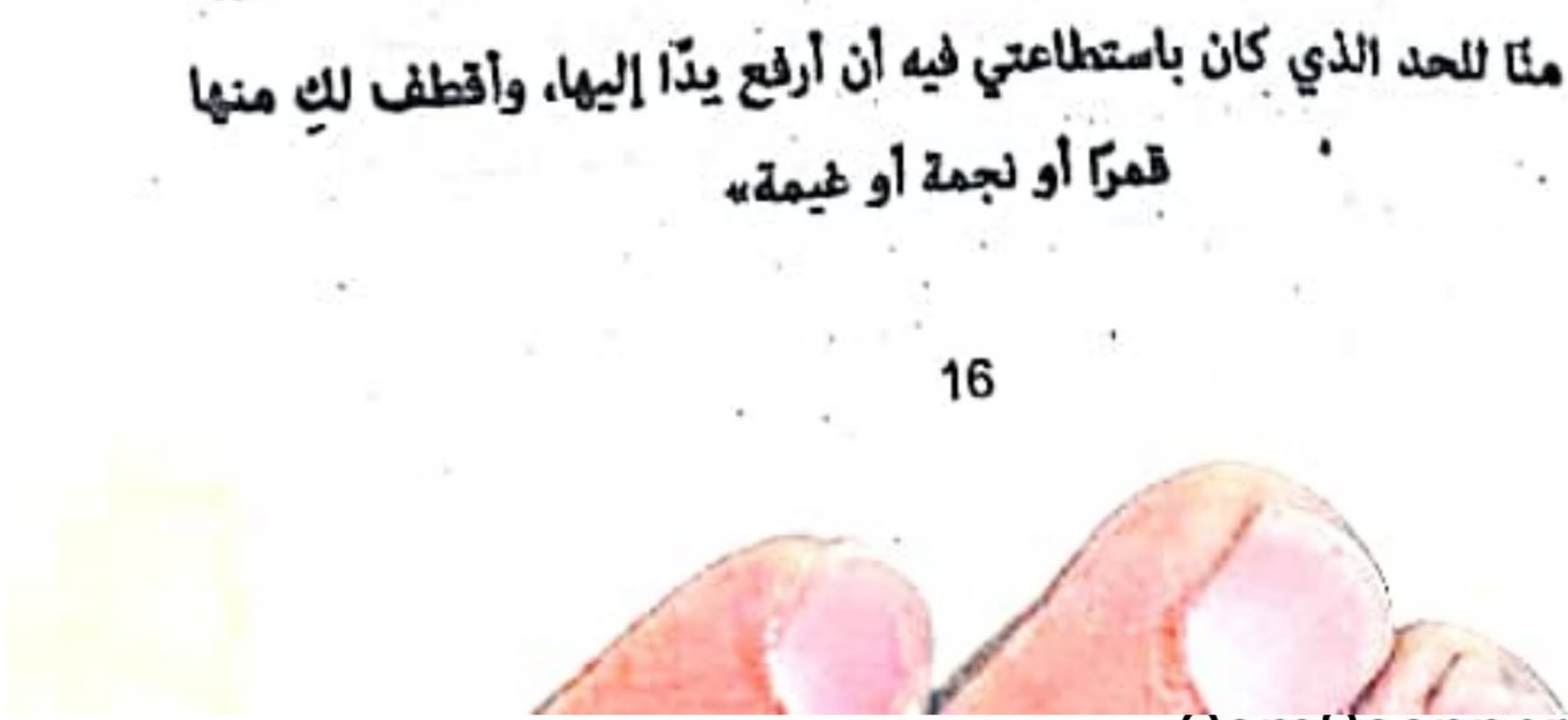

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رغم فارق السن الكبير الذي بيننا إلا أنه كان أكثر أصدقائي قربًا، وهو الشخص الوحيد الذي سأظل طوال عمري ممتنًا له من أجل معروف قديم صنعه لي: فهو الذي أخذ على عاتقه مهمة تعليمي الكتابة الأدبية، حتى أصبحتُ كاتبًا..

سحبت ورقة أخرى وقرأت:

«كان يشع حولي ألف ضوء منير، لكني لم أختر إلا عتمتك الفاتمة ذلك أن ظلامك بالنسبة لي .. كان يُغني عن ألف شمس ساطعة»

***

أشعلت نظام التدفئة في الغرفة كما أوصاني العم ميلاد قبل أن يُغلق الخط في وجهي.. ثم همستُ للكتب المتكدسة فوق الأرفف:

- أبوكم يخبركم بأنه يحبكم كثيرًا..

كانت العلاقة التي تجمعه بالكتب شديدة الغرابة؛ فقد كان يعاملها كما لو أنها عائلته الوحيدة.. أذكر أني سألته في بدايات لقاءاتي به:

- لماذا تحب الكتب لهذا الحد؟!

كان جوابه غريبًا قال بأنه يحب الكتب لأنها لا تخون، لأنها تتفهم حاجته للعزلة والصمت، لأنها تنصت إليه باهتمام عندما يبدو كلامه للآخرين سخيفًا.. ولأنه محدود القدرات ولا يستطيع رؤية ما وراء ظهره، بينما تمنحه الكتب قدرة الرؤية لما وراء الأشياء، ولأنّ رائحة الشيخوخة حين باتت تفوح منه، أصبح الآخرون يخترعون الذرائع لمغادرته، بينما بقت الكتب وحدها معه، تنظر إليه من فوق الأرفف بحب وولاء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تأكدت حينها أن هناك من آلم قلب ذلك الرجل المسكين، وبأنّ حبه الشديد للكتب ذاك لم يكن إلا تعويضًا عن شيء يفتقده بشدة، أو بشكل أدق: كانت الكتب بالنسبة إليه ضمادة يُغطي بها جُرحًا عميق.

أذكر أيضًا أنه سألني وقتها:

- وأنت لماذا تحب الكتابة لهذا الحد؟!

- لأنها الشيء الوحيد الذي يساعدني على البقاء حيًّا..

- وأين هي كتاباتك؟!

- لا أملك شيئًا منها.

- لماذا؟!

- لأني أُطعمها للنار..

- تحرق أوراقك؟!

- نعم، بعد كل مرة أنتهي فيها من الكتابة..

- ولماذا تحرقها؟!

- لأني أخاف

- من ماذا؟!

- من سخرية الآخرين؛ أنا أحب الكتابة مذ أن كنت صغيرًا، ولكن الجميع كانوا يسخرون مني عندما يقرؤون لي..

- فأصبحتَ تحرق أوراقك حتى لا يسخر منك أحد؟!

- نعم، هذا هو السبب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال بغضب مكتوم:

- أتعلم؟!.. لو كنتُ قاضيًا لأمرت بشنقك

متعجبًا سألته:

- لماذا؟

- لأنك ترتكب جريمة ضد الأوراق!!

لم أكن حينئذ أعرفه جيدًا وبالتالي لم أستوعب حينها لماذا كان غاضبًا مني لتلك الدرجة، قلت في محاولة لتصليح الأمور معه:

- سأكتب شيئًا من أجلك.. صحيح أني لا أحب أن يطّلع أحدهم على ما أكتب ولكن لا بأس إن كان هذا سيرضيك

- لا تُحرق الأوراق، إن كنتَ فعلًا تريدني أن أرضى.

- لم يسبق لي أن رأيتُ شخصًا في هذا العالم يـهتم بالأوراق مثلك

- ربما لأننا أصبحنا نعيش في عالم فاسد، يحتاج سكانه لتأديب.

- ألا ترى بأنك تعطي الأمور أكبر من حجمها؟!

- بل أضعها في حجمها الطبيعي، أنت من يبخس قيمة الأشياء هنا.

- أي أشياء هذه التي أبخس قيمتها؟! - سألت متعجبًا ثم أخرجت له من جيبي ثلاثة دولارات وقلت: بهذه الدولارات الثلاثة فقط أستطيع أن أشتريَ لك دزينة من الأوراق تكفيك دهرًا، إنّ الأوراق ليست ثمينة كما تعتقد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ببرود شديد أدخل يده في جيب بنطاله وأخرج لي دولارًا واحدًا:

- أترى هذا الدولار الواحد؟!.. أستطيع أن أشتري به عبوة ماء، ثم أنقلك بها عندما تكاد تموت عطشًا.. أرأيت؟!.. لقد أنقذتُ روحك بعبوة ماء اشتريتها فقط بدولار واحد، هل هذا يعني أن روحك ليست ثمينة؟!

انهزمتُ أمام منطقه، لقد كان المثال بسيطًا من حيث الفكرة لكنه ثقيل في معناه.. أما هو فقد كان يدرك جيدًا مدى العمق الذي وصلت إليه كلماته، لهذا ربما صمتَ لبعض الوقت قبل أن يسأل:

- أخبرني هل تعرف ميثاق الشجرة والكاتب؟!

أجبتُ بشرود: لا، لا أعرف.

- لكنك تعرف بأن الأوراق تُصنع من الأشجار أليس كذلك؟

في الواقع إنها المرة الأولى التي كنت أعرف فيها أنهم يصنعون الأوراق من الأشجار، لكنني تظاهرت بالعكس لأتفادى غضبه:

- نعم، أعرف..

- هل تحلم بأن تصبح كاتبًا في المستقبل؟!

- هذا أكبر أحلامي، ولكن..

- ولكن ماذا؟!

تنهدتُ وأنا أقول:

- ولكنه حُلم يُستحيل تحقيقه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أذكر أنّي وقتها كنتُ مشتتًا لا أعرف أين أضع خُطوتي الأولى، متناثر أبحث عن صمغ جيد ألصق بمعيته أحلامي المُبعثرة.. تائه والدرب مستحيل.. أخاف من سخرية الآخرين مما أكتب، وأخاف أن أكتب فلا يقرأ لي أحد..

قال العم ميلاد وكأن الله أطلعه على قلبي في تلك اللحظة:

- سوف أُعلمك الكتابة الأدبية، وستحقق حُلمك.

سألته بشك:

- وما مصلحتك أنت من هذا؟

قال وعيناه تخفيان سرًّا:

- ستعرف يومًا.

كنتُ أعرف جيدًا أننا نعيش في وقت لا أحد يُساعد فيه أحدًا دون مقابل، غير أنّ الشغف بداخلي كان أكبر من التردد أو الشك؛ لذلك قلت لنفسي وقتذاك بأنه طالما سوف يُساعدني في تحقيق حُلمي فلا يهم أي سر كان يُخبئه خلف ظهره:

- موافق، ما هو الدرس الأول؟!

- يجب عليك أولًا أن تتعرف على ميثاق الشجرة والكاتب

- وأنا كلي آذان صاغية..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما هو فإنه ابتسم لحماسي ذاك، وبدأ يتكلم:

- تقول الأسطورة بأن أحد الكتّاب القدماء ذهب للغابة ذات مرة، لجمع بعض الأشجار التي سيقوم بتحويلها لأوراق للكتابة، ولكن وبينما هو يتجول وحيدًا هناك إذ سمع فجأة صوت شخص يبكي، انتابه فضول شديد حينها؛ فهو يسكن بالقرب من الغابة ويعرف بأن لا أحد في العادة يزورها غيره، فذهب ليتفقد الأمر وحين وصل لمصدر الصوت وجد شيئًا غريبًا للغاية: لقد وجد شجرة تبكي!!

حاولت بقية الأشجار همسًا أو عن طريق لغة الإشارة أن يطلبوا من الشجرة الكفّ عن البكاء؛ لكي لا يكتشف الكاتب سرهم.. لكنّ الشجرة كانت لا تزال صغيرة؛ لذلك فإنها عندما رأتهم يأمرونها بالصمت زادت من حدة بكائها عنادًا..

أما الكاتب فإنه تقدم نحوها مدفوعًا بشغف الفضول يريد أن يعرف السبب الذي من أجله كانت الشجرة الصغيرة تبكي، فسألها:

- لماذا تبكين؟!

بطبيعة الحال فإن الأشجار لا تعرف على وجه اليقين ما الذي يفعله بها الإنسان بعد أن يقتلعها من تربتها، إلا أنها بغريزتها التي توارثتها جيلًا بعد جيل كانت تعتقد أنه يفعل ذلك ليتخذ منها حطبًا يُشعل بها ناره، فأجابت:

- لا أريد أن ينتهي بي المطاف في مدفأتك!!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لم أكن أريدكِ حطبًا للمدفأة، كنت أريد تحويلكِ لأوراق للكتابة.

- أوراق للكتابة؟؟

- نعم أوراق أكتب عليها قصة يقرؤها الأطفال والكبار..

- وما هي القصة التي ستكتبها؟

- إنها قصة فلسفية، عن طائر يقع في حُب سمكة.

في تلك اللحظة أحسّت الشجرة بأن هناك شعورًا طاغيًا في اللذّة يلامس أبعد نقطة في داخلها، لقد أحسّت بذلك السحر المُبهم الذي تمارسه القصة، لتشدنا أكثر نحو تفاصيلها الرائعة.. تساءلت الشجرة:

-كيف لطائر أن يقع في حُب سمكة؟!

ولأن ذلك الكاتب كان يؤمن بخصوصية القصة، فإنه لم يكن يُحب أن يتحدث عن شيء يكتبه قبل أن يكمله نهائيًا، لذلك قال:

- سوف تعرفين بعد أن أنتهي من كتابتها..

تمنّت الشجرة في أعماقها لو أنها تتحول لأوراق؛ كي يكتب عليها الكاتب قصته الفلسفية تلك، ولكنها في الوقت ذاته شعرت بالرعب من المصير الذي قد يلحق بها بعد أن ينتهي الناس من قراءتها، فسألت بقلق:

- وماذا سيحدث للأوراق بعد أن ينتهي الأطفال والكبار من قراءتها؟

- إذا كانت القصة جيدة فإنهم سيحتفظون بها لإعادة قراءتها من وقت لآخر، أو ليقوموا بإهدائها لشخص يحبونه..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعندما اطمأنت الشجرة للمصير الذي ستؤول إليه الأوراق بعد الانتهاء من قراءتها، فإنها اتخذت قرارًا غير متوقع جعل بقية الأشجار تشهق لفرط جرأته:

- أريدك أن تحولني لأوراق - ثم أضافت: ولكن بشرط..

تساءل الكاتب: ما هو الشرط؟!

فقالت: «أن تكتب قصة رائعة تستحق أن أموت من أجلها»

***

نظر إليّ العم ميلاد بعد انتهائه من سرد القصة وقال:

- إذا أردت أن تصبحَ كاتبًا في المستقبل، فاكتب شيئًا يستحق أن تموت الأشجار من أجله، هذا هو ميثاق الشجرة والكاتب.

أذكر أنّ تلك القصة جعلت بداخلي شغفًا كبيرًا لأتعلم الكتابة وأكتب شيئًا تستحق أن تموت الأشجار من أجله؛ لذلك ذهبت للعم ميلاد في اليوم التالي لكي أريه شيئًا من كتاباتي، فأخذ الورقة من يدي وقرأ:

«ما أروع وأفتن عينيها الخلابتيـن.. عينيها اللتين كأنهما ثقبٌ أسود فضائي سحيق.. يدفع النجوم المضيئة التي في السماء البعيدة دفعًا للدخول إليه»

بعد أن انتهى من القراءة نظر إليّ بصمت ولم يعلّق، فسألته:

- هل كتاباتي سيئة؟!

- في الحقيقة إنها سيئة لدرجة أني شعرت برغبة في التقيؤ وأنا أقرأ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لقد آلمني بصراحته لكنّه لم يكترث لشعوري، وأخرج من جيب سترته قلمًا سائلًا انتزع غطاءه بفمه وجعل يكتب على ورقتي شيئًا بينما هو يقول:

- إنّ الكتابة الجيدة عبارة عن فكرة وكلمة.. وفكرتك هذه لا بأس بها ولكنّك تعاني من الإسراف في استخدام الكلمات - ثم أضاف متسائلًا: قل لي لماذا لا تلجأ لتبسيط كتاباتك؟!

- لأن تعقيد الأمور هو ما يجعل الناس يعرفون بأنك كاتب.

- خطأ.. تعقيد الأمور هو ما يجعل الناس يعرفون بأنك أحمق، أما الكاتب الرائع فإنه ذاك الذي يجعل أكثر الأشياء تعقيدًا تبدو وكأنها تافهة لفرط بساطتها - ثم أضاف قائلًا وهو لا يزال يُمسك غطاء القلم بفمه ويواصل الكتابة: إنّ الكاتب الذي يخاف أن يكتشف الناس ركاكة محتواه، يلجأ للتعقيد في كتاباته، أتعرف لماذا؟!

- لا.

- كي يُخفي ضعفه بين السطور فلا يتنبه إليه أحد.. بينما الكاتب الرائع يكتب بأكبر بساطة ممكنة هل تعرف لماذا؟!

قلت غير واثق من صحة إجابتي:

- لأنه يثق بنفسه؛ وبالتالي هو لا يملك شيئًا يُريد إخفاءه بين السطور؟

- ها قد بدأت تستوعب درسك الثاني - قال ذلك ثم أعاد ورقتي: هاك، لقد أجريتُ بعض التعديلات على كتابتك..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخذت من يده الورقة وقرأت:

«كانت عيناها تُشبهان ثقبًا أسود

يُغري نجوم السماء بالدخول إليه»

لقد كان الكلام مكتوبًا ببساطة شديدة، ورغم هذا إلا أنه بدا أكثر عمقًا وجمالًا من النص القديم، لقد تخلص العم ميلاد من كل كلمة زائدة، وقام بإعادة صياغة التعبير بأكبر قدر ممكن من البساطة، قال:

- اكتب كلامًا يُلامس قلب القارئ؛ فالقارئ يبحث عن نفسه داخل كتاباتك وفي اللحظة التي سيجد نفسه فيها فإنه سيعلن عليك الحُب.

بدأت أسجل خلفه الملاحظات كي لا أنساها، بينما أكمل هو قائلًا:

- واقرأ بشغف كما لو أنّ القراءة ستدفع عنك موتًا يُطاردك.

وأضاف شيئًا أخيرًا:

- ولا تستهن بالكتابة أبدًا؛ فالكتابة تشبه قنبلة موقوتة، يجب عليك أن تكون في كامل وعيك وأنت تكتب وإلا انفجرت كلمة ما في وجهك وأردتك قتيلًا.

***

بعد قليل وبينما كنت لا أزال أجلس وحدي في الغرفة التي تغطي الخزائن الخشبية حيطانها الأربعة، إذ سمعت صلصلة مفتاح يدخل في الثقب المعدني لقفل باب الشقة؛ فعرفت أنّ العم ميلاد قد عاد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

متوكئًا على عكازه الخشبي وببطء شديد يشي بتقدمه في السن، كان العم ميلاد يسير باتجاه الغرفة التي كنت جالسًا فيها..

دخل الغرفة بهدوء مبالغ فيه؛ لكي لا يوقظ الكتب النائمة على الأرفف الخشبية.. وما أن رآني جالسًا هُناك حتى قال بصوت خافت:

- اعتقدتُ بأنك غادرت..

- ليس قبل أن أعرف أين كنت

قال وهو يتقدم لعُمق الغرفة:

- أنت صديق جيد ولكنّك تملك قلب زوجة مزعجة.

ثم سألني وهو ينزع عن جسده المعطف الثقيل، ويُعلقه على المشجب:

- بالمناسبة أتعرف لماذا لم أتزوج بعد زوجتي الأولى؟!

- ربما لأنك أصبحت رجلًا منتهيَ الصلاحية؟!

- لا أيها الأبله ليس لهذا السبب - ثم أردف ساخرًا: حسنًا إنه أحد الأسباب، ولكن هُناك سبب آخر، قل لي ما هو..

- ما هو؟!

- لكي لا أجلب لنفسي محققًا مزعجًا في بيتي، يسألني في كل مرة يراني فيها إلى أين سأذهب، ومن سأقابل، ومتى سأعود.. لذا كف عن التحقيق معي!!

- أخبرني بأنك لن تلجأ لي عندما تقع مصيبة فوق رأسك وأعدك بأن لا أحقق معك!!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- يا أخي مللتُ البقاء في البيت فذهبت للتنزه قليلًا على قدميّ!!

- كيف إذًا لم تنتبه للسماء وهي تُمطر؟!

صمت قليلًا كما لو أنه استوعب الخطأ الذي وقع فيه ثم قال:

- كان يجب عليّ أن أفكر بحبكة مقنعة، قبل أن أكذب عليك.

- لماذا لا تريد أن تقول الحقيقة؟!

جلس فوق كرسيّ مكتبه، ثم قال بصوت ميحوح:

- لأنني في ورطة، ولا أريد أن أُشغل بالك بها..

- منذ متى أصبحتَ لا تُقحمني في مصائبك؟!

- منذ عرفت أنّها مُصيبة لا حل لها..

- تكلم قد أستطيع مساعدتك

- لا، لن تستطيع

- أتقاسمها معك إذًا فهكذا يفعل الأصدقاء.

سادت بيننا لحظة صمت قصيرة، قال بعدها معترفًا:

- لقد كنتُ في المشفى..

- وماذا عن صوت وقع الأقدام ذاك؟!

- لقد كانت الطبيبة المناوبة..

- وهل كانت الطبيبة المناوبة تنتعل حذاء كعب؟!

- نعم، وكم كنت أرغب في أن أخلعه من قدمها، وأضربها به على رأسها حتى تشعر بمدى الصداع الذي كان يسببه لي وقع كعب حذائها كلما تحركت خطوتين في العيادة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- وماذا كنت تفعل في المشفى؟!
- هل تذكر الحالات التي بتُّ أعاني منها منذ فترة؟!
- نعم، أذكرها ما بها؟!
- لقد ذهبتُ للمشفى قبل ثلاثة أسابيع من أجلها.. قمت بعمل بعض الفحوصات الطبية اللازمة، وأخبرتني حينها الطبيبة بأن النتائج قد تستغرق عدة أيام قبل أن تظهر.. ولكنّي نسيت أن أذهب لاحقًا للمراجعة.
- وما الذي ذكرك بها اليوم؟!
- لقد تلقيت البارحة اتصالًا من الطبيبة تطلب مني فيه زيارتها بأقرب فرصة ممكنة.. سألتها إن كان باستطاعتي زيارتها بوقت متأخر، فقالت بأنها ستكون مناوبة لهذه الليلة وبأني أستطيع الذهاب إليها في أي وقت - ثم همس العم ميلاد مداعبًا: ولا أخفيك سرًا بأني ظننت في البداية بأنها قد تكون معجبة بي، وإلا فلماذا تسمح لي بزيارتها في وقت متأخر من الليل؟!

ابتسمتُ لدعابته:

- وهل اتضح لك أنها معجبة بك فعلًا؟!
- لا - قال ساخرًا وأضاف: فما الذي يظنّك قد يدفع طبيبة جميلة مثلها لأن تعجب بشخص سيموت قريبًا مثلي؟!

بدهشة سألته: ماذا تعني بكلامك هذا؟!

صمت قليلًا قبل أن يعترف: أنا مصاب بورم خبيث..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم راح يخبرني أنّ الفحوصات النهائية قد كشفت بأن لديه كتلة كبيرة في الفص الأيسر من دماغه، وقد تبين لهم بعد التحاليل الدقيقة أنها ورم خبيث؛ وهذا ما يُفسر حالات الصداع والإغماءات التي باتت تصيبه من فترة لأخرى:

- في أفضل الأحوال قد أعيش لمدة عامين ونصف العام.

- لا عليك سآخذ قرضًا من البنك، ونذهب لعلاج..

قاطعني قبل أن أُكمل:

- لا تتعب نفسك؛ فقد أكدت لي الطبيبة أنهم اكتشفوا ذلك متأخرًا وأنه لا أمل من إجراء عملية جراحية - وأضاف مازحًا كما لو أنه أراد مواساتي: ثم إنني على كل حال لن أسمح لك بأن تأخذ قرضًا من البنك لتساعد به رجلًا منتهي الصلاحية.

احتضنته بكل قوتي وكأني أحاول التشبث به فلا يخطفه الموت أبدًا..

يا الله امنع المصائب عنه؛ فإنه صديقي:

- هل ثمّة ما أستطيع أن أفعله كي أخفف الحزن عنك؟!

- في الحقيقة نعم.

- ما هو؟!.. سأفعل أي شيء من أجلك

صمت قليلًا كما لو أنه يعلم سلفًا بأنّ طلبه سيكون صعب التنفيذ، ثم أخيرًا همس بتردد وهو ينظر مباشرة لعينَيّ:

- أريدك أن تكتب جزءًا ثالثًا من مدينة الحب لا يسكنها العقلاء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شعرت لحظتذاك بالاختناق كما لو أنّ رأسي كان مغطسًا في بركة مياه ضحلة، قال العم ميلاد محاولًا إنقاذ الموقف:

- أعلم بأنك لم تعد تريد المواصلة في كتابة هذه السلسلة، وأنا أحترم رغبتك، وأؤكد لك بأنك تستطيع رفض طلبي هذا إن أردت.. ومن غير أي ضغوطات عليك.

***

فيما مضى كنت أخاف كثيرًا من فكرة أنّي ربما وعن غير قصد أقوم بحبس نفسي داخل هذه السلسلة الأدبية فلا أستطيع الخروج منها أبدًا؛ لهذا فبعد إصدار «الجزء الثاني»[1] قمتُ بعقد صفقة مع العم ميلاد وهي: «التوقف نهائيًا عن كتابة هذه السلسلة»

أذكر أنه سألني وقتذاك عن السبب فأجبته قائلًا:

- أخاف أن يرتبط اسمي بهذه السلسلة، فلا أستطيع كتابة غيرها.

بدا متفهمًا حينها وهو يقول:

- قد تكون محقًّا، ولكن هل لديك فكرة جاهزة لكتابة عمل آخر؟

---

١ الجزء الثاني: «أنت كل أشيائي الجميلة»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أجبته على سؤاله:

- لديّ رواية قمتُ بكتابتها منذ زمن طويل، لكنها بحاجة لبعض التعديلات، سيكون اسمها أبابيل - ثم أضفت قائلًا: لا أدري! كانت ستكون رواية جيدة أم لا، لكنني سأقوم بتنفيذها على كل حال.

كانت «أبابيل» أول رواية أقوم بكتابتها على الإطلاق وأول عمل أدبي كان من المفترض أن يُنشر لي، ولكنني عندما فقدتُ الفتاة التي بتهي اسمها بتاء مربوطة في تلك الأيام البعيدة اضطررت لكتابة مدينة الحُب لا يسكنها العقلاء ونشرها أولًا.

***

ما زالت طاولة خشب الأبنوس تفصلني عن العم ميلاد، وما زلت أنظر إليه بتعجب؛ هو الذي يعلم جيدًا وأكثر من أي شخص آخر بأنني لا أريد العودة لكتابة تلك السلسلة، فكيف له أن يطلب مني هذا الطلب الغريب، قلت غاضبًا:

- لقد اتفقنا على أن نتوقف نهائيًا عـ..

قال مقاطعًا:

- صدقني أنت لستَ بحاجة لأن تتحدث معي بهذه الطريقة العصبية، حتى تذكرني بذلك الاتفاق؛ فأنا لا أزال أذكره جيدًا..

- طالما أنكَ لا تزال تذكره جيدًا، فلماذا تطلب مني هذا الطلب؟

- لأنك سألتني إن كان هناك ما يخفف عني الحزن، فأخبرتك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لقد وضع فوق عاتقي حملًا كبيرًا، إنها أمنيته الأخيرة فهل أدعه يرحل قبل أن أُحققها له؟!.. قلت أفكر بصوت مسموع:

- عندما قمتُ بنشر مدينة الحب لا يسكنها العقلاء في عام 2015 .. كان في قلبي شيء يهمس لي بأنّ هذا الكتاب سوف يتفرع مثل بذرة ويغدو يومًا سلسلة روائية، لكن في الوقت ذاته ما كنت أعرف كيف سيحدث هذا.. ثم ولولا تلك الطفلة المشاغبة التي جاءت تحمل الأوراق في معرض جدة الدولي للكتاب، لما كان هناك اليوم جزء ثانٍ منها..

سأل العم ميلاد: ماذا تريد أن تقول بالضبط؟!

- أريد أن أقول بأنّي كنت أملك مبررًا مقنعًا لكتابة الجزء الثاني، أما الآن فأنا لا أملك مُبررًا أدبيًّا واحدًا يدفعني لكتابة جزء ثالث..

- بل لديك.

أرسلت إليه نظرة مستفهمة، فقال:

- السر المكتوب داخل الورقة النقدية.

❁❁❁

يا إلهي.. إنه يقصد سر الفتاة التي ينتهي اسمها بتاء مربوطة، ذاك السر الذي قامت بكتابته داخل الورقة النقدية من فئة العشرة ريالات والذي لم أتمكن من قراءته حينها..

سألتُ متوجسًا:

- ما الذي ذكرك به الآن؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لم يغب عن بالي يومًا - ثم أضاف بنبرة متوسلة: لا أريد أن أموت قبل أن أعرفه، أرجوك جد طريقة تحثها بها على إخبارك بالسر..

- وماذا تريد مني أن أفعل - قلت مهتاجًا - هل جننت؟!.. أم أن هذه الكتلة الغبية التي في رأسك قد أثرت على وظائف عقلك الدماغية؟! لقد اختفت تلك الفتاة نهائيًا، ولم أعد أعرف لها دربًا، أم أنك تريد مني أن أطرق أبواب بيوت العالم بيتًا بيتًا للبحث عنها وسؤالها عن ذلك السر اللعين؟!

أعرف أني قلت ما لا ينبغي قوله، أعرف أني قسوت عليه بكلماتي في الوقت الذي كان يجدر بي أن أكون معه أكثر لطافة من أي يوم مضى، قلت مستدركًا بندم: آسف، لم أكن أقصد.

متجاهلًا اعتذاري سأل بفضول:

- ألم تعد تحبها؟!

تهربتُ من سؤاله بالصمت.. فألقى بسؤال آخر:

- ألا يتعبك أن تكون غارقًا بكلام لا تستطيع البوح به؟

- ثمة كلام البوح به يشبه السير فوق حقل ألغام.

- أنت بائس لأنك هُزمت، ونحن الرجال بطبيعة الحال لا نحب الكتابة عن معاركَ عُدنا من ساحاتها مُكللين بعار الهزيمة..

- لستُ حزينًا لأني هُزمت؛ فتلك الفتاة كانت المعركة الوحيدة التي أفتخر بأني هُزمت فيها.. لقد أخبرتك بهذا أكثر من مرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عاد ليسأل السؤال الذي تهربتُ من إجابته قبل قليل:

- ألم تعد تحبها؟!

- لا، لم أعد أحبها..

- ألم تعد تخطر في بالك أبدًا؟!

- أبدًا.. للحد الذي لو رأيتها فيه صدفة بالشارع، فإني سأحتاج لوقت طويل حتى أتذكر من كانت، أو حتى أتذكر اسمها.

جعل يُحدق فيَّ لبعض الوقت كما لو أنه يبحث عن الصدق في عيوني.. وحين طالت مدة تحديقه قلت له مقاطعًا:

- ما بك تنظر إلي بهذه الطريقة، هل أضعت شيئًا في وجهي؟!

- ليس عليك أن تطرق أبواب بيوت العالم بيتًا بيتًا لمعرفة السر..

- كيف تُريدني أن أصل إليه إذًا؟!

بخبثٍ همس كما لو أنه شيطان يدفعني لارتكاب معصية:

- اكتب لها جزءًا ثالثًا تطلب فيه منها معرفة السر - ثم أضاف:

اكتب لها، فأنت تعلم جيدًا بأنها لن ترد لك طلبك..

لم أكن أعرف كيف أجيبه حينها، لذلك نهضت من مكاني متجهًا لباب البيت مغادرًا، فقال وهو يستعد للحاق بي: مهلًا، سآتي معك..

- لا، أفضل أن أكون وحيدًا.

- هل ستعود؟!

- لا أدري - قلت ذلك ثم غادرت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الشوارع المبللة ببقايا المطر جعلت أسير وحدي تائه الخطا كقط مشرّد لا يملك وجهة محددة للذهاب إليها: أنا لا أريد مواصلة الكتابة في هذه السلسلة، ولكن ليس فقط للأسباب التي قُلتها للعم ميلاد، بل لأن الكتابة إليكِ موجعة، تشبه وجع شخص يتألم لأن ثمّة من طعنه بخنجر حاد ثم أخذ يبرمُ نصل ذلك الخنجر داخل جرحه النازف.

لقد حاولتُ مرارًا نسيانكِ بيد أنّ كُل محاولة للنسيان كانت في نهاية المطاف تقودني إليكِ، لذا قررت لاحقًا الانهماك في أعمال كثيرة تفوق قدرتي على الاحتمال؛ فقط لكي لا يصبح لديّ متسع من الفراغ للتفكير بكِ.. لكن وأنا في غمرة انشغالي كان طيفكِ يمد ليّ كوب ماء دافئ، ويمسح بكفَّيْه قطرات العرق عن جبيني، ويهمس لي بحب: «أنا لك وأنت لي».. ثم بلطفٍ كان يُعانق روحي المُتعبة؛ من كُل شيء ليَشفيها.

لم أكن قويًا كما تظنين، كنتُ سرًا آخذ كفاف قوتي منكِ، أنا الذي كان كلما شعر بالخوف، حمل قلبه المرتجف بين كفيه وراح يركض به نحوكِ باحثًا عن السلام، عن الأمان والطُمأنينة..

آه لو تعلمين كم يُجيفني هذا البعد، كم تؤلمني هذه المسافة اللعينة بيننا، كم تؤذيني فكرة أننا لم نعد ندري عن تفاصيلنا، نحن اللذّان كنا نعرف أدق التفاصيل عن بعضنا، كيف انتهى بنا المطاف اليوم إلى أن لا يعرف أحدنا عن الآخر أكثر مما يعرفه الغرباء عنا؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أعلم بأني لم أكن شخصًا يسهلُ التعامل معه، أعلم بأني كنتُ مُملًا، وموغلًا في الكآبة كجمرة مُنطفئة، لا شيء يروقني، كثير العتاب، متردد متشائم، إلا أنّ حضورك الطاغي كان يُشرّع نوافذ قلبي ساعةً للهواء والمطر وضوء الشمس بالعبور، فأصبح معكِ حافلًا بالحياة مثل كوكب ليس ثمّة فيه غير أطفال يلعبون ويضحكون..

أنتِ لا تعرفين كم نحن الرجال مخلوقات أنانية في عواطفنا، كم نحن بخلاء حين يتعلق الأمر بالتعبير عما يدور بقلوبنا.. ولكن لكل رجل منّا فتاة واحدة فقط حين تأتي تجعلنا مستعدين لتبني كُل كوابيسها وأحزانها وعقدها النفسية.. ونعطيها دون مقابل: أحلامًا، وضحكات وبالًا مطمئنًّا.. هذه الفتاة عندما تختفي يصبح الرجل منا واقفًا على شفير هاوية.. لا شيء ينقذه من السقوط غير التفتيش عن فتاة أخرى مشابهة..

وأنا لا أخفي عليكِ بأنّي قد حاولت مرارًا التفتيش عن فتاة تُشبهكِ، في الشوارع والمقاهي وفي وجوه كل العابرات فوق الجسور والأرصفة، لكن نجوم الله في السماء ذات ليلة همسن لي بأنه ليس ثمّة حورية على سطح هذه الأرض تُشبهكِ.

هل عرفتِ الآن لماذا لا أريد كتابة جزء ثالث؟!.. أنّي أخاف أن أكتب عنكِ فيختلّ توازني وأسقط في الهاوية.. ولكنني في الوقت ذاته لا أستطيع رفض طلب العم ميلاد؛ فأنا لن أسامح نفسي أبدًا إن مات قبل أن أحقق له وصيته الأخيرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مدير الدار،

الساعة 3:45 ليلًا

في طريق العودة لشقة العم ميلاد.

تناولتُ هاتفي المحمول من جيب المعطف، وتواصلت فورًا مع «مدير الدار».. طال انتظاري وأنا أضع سماعة الهاتف على أذني للحد الذي أيقنتُ معه بأنه لن يُجيب، ولكن قبل أن تنتهي المكالمة رفع مدير الدار الخط وجرت بيننا هذه المحادثة:

- أستاذ ياسل مرحبًا..

جاءني صوته خافتًا:

- ألم تنظر للوقت في ساعتك قبل أن تتصل بي؟!

قلت بخجل وأنا أستعد لإنهاء المكالمة:

- معك حق، لم أنتبه لتأخر الوقت، سأتصل بك غدًا

يبدو أنّ الفضول بدأ يركلُ بداخله كجنين يركلُ بطن أمه:

- تكلم قُل ما لديك..

- رواية - قلتُ بتردد - إنها رواية جديدة، أردتُ أن آخذ رأيك فيها قبل الشروع بكتابتها..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ما هي - سأل باهتمام - هل هي جزء آخر لـ أبابيل، لأنها لو كانت كذلك فأنا أخبرك بأنني سأقوم بنشرها لك حال انتهائك منها..

- إنها جزء آخر ولكن ليست لـ أبابيل، بل لمدينة الحُب لا يسكنها العقلاء

سأل بحيرة:

- هل توصلت للسر المكتوب داخل الورقة النقدية؟!

- لا، ومن أجل ذلك أريد كتابة الجزء الثالث..

- ماذا تقصد؟!

- سأطلب منها في الجزء الثالث أن تخبرني بالسر..

- وهل هناك قصة مثيرة ستقوم بكتابتها؟!

- أظن أن قصتي معها ستكون مادة أدبية جيدة، وأظن أيضًا أن..

قاطعني قائلًا وبطريقة مباشرة: أقصد هل ستكتب قصة مُثيرة من تلك التي لا تصلح إلا للكبار فقط؟!

أجبت عن سؤاله بإجابة تعني - لا ونعم - في الوقت ذاته:

- سأكتب القصة الحقيقية كما حدثت بالضبط.

أعرف أنه لم يكن راضيًا عن مستوى الوضوح في الإجابة، إنه يريد مني أن أكتب بجرأة عالية متجاوزًا كل الخطوط الحمراء فقط ليزيد حصة أرباحه من مبيعات الرواية، لكنني لن أكذب من أجل إرضائه سأكتب القصة كما حدثت بالضبط.

- وكم ستحتاج من الوقت لإنجازها؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ربما شهر، أو أقل.
- شهر واحد فقط لكتابة الرواية؟!!
- نعم، فأنا سأكتب من الذاكرة، لن أبتكر قصة خيالية.

بخبث قال:

- عمومًا ستخضع هذه الرواية لاختبار لجنة الموافقة.

أُصبت بالدهشة مما سمعته؛ فالمؤلفون الجدد وحدهم فقط من تخضع أعمالهم الأدبية لاختبار لجنة الموافقة، حيث تقوم تلك اللجنة أولًا بالاطلاع على المادة الأدبية، ثم تقوم بإرفاق توصية لإدارة النشر تُقبل بقبول أو رفض العمل.. أما المؤلفون الذين قد تم نشر أعمالهم سابقًا فإنهم عادة لا يمرون بهذا الإجراء..

سألته:

- ولماذا ستقوم بإرسالها للجنة الموافقة؟
- اسمع يا أحمد.. هل تعرف لماذا تلعق الحيوانات نفسها؟!

أجبته بسخرية مبطّنة:

- في الحقيقة لا.. ولا أعرف حيوانًا آخر لأسأله، أخبرني أنت.
- لأن للعابها قدرة ذاتية على شفاء جروحها.
- لماذا تخبرني بهذه المعلومة الآن؟!
- لأنك أحيانًا تبدو لي مثل وحش جريح، تكتب فقط من أجل أن تلعق بكلماتك جُرحًا يؤذيك.
- غير صحيح أنا آآآ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قاطع كلامي قائلاً:

- أنت تعلم بأننا أصدقاء، وبأنك تستطيع أن تطلب مني ما لا يستطيع غيرك أن يطلبه، ومن أجل هذه الصداقة أنا لن أنشر لك عملًا قد يضر بمصلحتك، لهذا سوف تمر روايتك القادمة على لجنة الموافقة.

«أنا وأنت نعرف جيدًا أننا لسنا أصدقاء فعلاقتنا قائمة على المصلحة، أنت تبحث عن منافعك الشخصية، وأنا أبدو لطيفًا معك بسبب عقد الاحتكار اللعين الذي بيننا.. فلا تحاول خداعي!!»

هذا ما كنت أريد أن أقوله.. لكنني لم أشأ أن أختلق معه مشكلة جديدة؛ فأكثر شخص من المفترض على المؤلف أن يخافه هذه الأيام هو مدير الدار التي يتعامل معها، لذلك قلتُ متظاهرًا بأني ابتلعتُ الطعم وأنا أستعد لإغلاق الخط:

- شكرًا لأنك تهتم لخطواتي الأدبية أستاذ باسل.. بعد أن أرسل لك المسوّدة النهائية للرواية تستطيع أن تفعل بها ما تشاء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

4

4:15 فجرًا

شقة العم ميلاد..

مددت يدي كابسًا زر جرس باب العم ميلاد، وما هي إلا لحظا
حتى بدأت أسمع وقع خطواتٍ قادمة من عمق الشقة، يتبعها نقر عكا
على الأرض، قال وهو يفتح الباب:

- ظننت بأنكّ لن تعود؟!

- عُدت لأني أحتاج لمساعدتك

- تحتاجها في ماذا؟!

- في كتابة الجزء الثالث.

فاغرًا فاه، سأل مندهشًا: أستفعل هذا من أجلي؟!

- لن أدعك تغادر هذا العالم يا صديقي وفي قلبك لا تزال أمنية.

***

في الغرفة الواسعة التي تغطي الخزائن الخشبية حيطانها الأربعة، جلسنا متقابلين تفصل بيننا طاولة خشب الأبنوس والتي بات يعتليها الكثير من الأوراق البيضاء بالإضافة لمصباح القراءة وآلة الكتابة العتيقة..

قال وهو يمد لي قلمًا:

- اكتب بجنون كما لو أن أحدًا لن يقرأ لك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلت معترفًا وأنا آخذ من يده القلم:

- لقد أخبرتك فيما مضى بأنني لا أريد كتابة جزء ثالث لأني أخاف أن يرتبط اسمي بهذه السلسلة، ولكن في الحقيقة ليس هذا هو السبب الوحيد.. إن التعايش مع فكرة غيابها كان أصعب شيء اضطررت لفعله طيلة حياتي، لن أقول بأني نجحت ولكنني مؤخرًا أصبحتُ أشعر ببعض التحسن.. وأخاف أن أعود للكتابة إليها، فأفتح لنفسي بابًا للذكريات لن أستطيع إغلاقه بسهولة..

ثم ولكي أُخفي عنه ضعفي فإني أخفضت رأسي وجعلت أتظاهر بالانشغال بالنظر في الأوراق البيضاء الممددة فوق الطاولة، وأردفت معترفًا كمذنب يعترف لقس كنيسة:

- أنا لا أزال أفكر بها..

- أعلم؛ فأنت تُضيء كبرق كلما فكرتَ بها.

- أنا لا أزال أُحبها..

- أعلم؛ فالقلب لا يكره قلبًا أحبه يومًا.

- أنا لم أنسها للحظة..

- أعلم؛ فالذي بينك وبينها أعمق من أن يُنسى.

- ماذا أفعل؟!

- لا تفعل، الوقت سيفعل، فكل شيء سيمضي.

- أعلم؛ ولكنّي لا أملك صبرًا يكفي لانتظاره حتى يمضي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مد يدًا ممتلئة بالعروق الناتئة رفع بها وجهي، وعندما نظرت إليه كانت ملامح وجهه جادة كما لم أرها يومًا..

قال:

- الله وحده يعلم بأن داخلك يحترق، الله وحده يعلم بأن قلبك معطوب، إنّه مطلعٌ عليك.. مطلعٌ على جروحك الغائرة.. على ارتجافة يديك، على قلقك، ضعفك، بؤسك، اضطرابك، ضياعك، وقلّة حيلتك، وهو لن يتركك.

- ولكنّ قلبي يحترق منذ زمن بعيد، أليس هذا كافيًا؟!

- أنت تحترق لتصل إلى ما أنت عليه الآن، ألم تقل يومًا بأنك تريد أن تصبح كاتبًا؟!.. ألم تقل يومًا بأن هذا هو حلمك الأكبر؟!.. أخبرني هل كنت لتصل إلى هنا لو أنك لم تتألم؟!.. إنّك تحترق لكي تنضَج.. وحالما تنضَج سيُطفئ الله النار المتقدة في صدرك.

- وإلى أن يُطفئها الله ماذا أفعل؟!

- اكتب.

***

وهكذا قربت القلم من الورقة وبدأت بكتابة القصة التي جمعتني بالفتاة التي ينتهي اسمها بتاء مربوطة.. تلك القصة القديمة والتي كان من المفترض أن تظل جاثمة بقاع صدري كسفينة منسية غارقة في أعماق المحيطات البعيدة، وأن لا أقوم بكتابتها أبدًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أن تكون رجلًا لا يعني أن أخاف منك، بل يعني

أن لا أخاف شيئًا في هذا العالم، وأنا معك

قالت الجميلة ذات مرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مذكرات:

أحمد آل حمدان

والفتاة التي ينتهي اسمها بتاء مربوطة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

1

جدة،
حي الصفا،
صيف عام: 2006م

أشعة الشمس الذهبية تُضيء السماء الزرقاء الصافية، الساعة تشير إلى الثانية عشرة والنصف ظهرًا، والجو حار.. حار جدًّا ومكتوم كما لو أن مدينة جدة كانت جُغرافيًّا تقع داخل فُرن مخبز كبير.

في آخر الشارع الطويل من الحارة ذات الطرقات الضيقة، تظهر السيارة القديمة: «كرسيدا موديل 1995» .. يقودها شاب مراهق لم يتجاوز عمره الثمانية عشر عامًا، لديه شارب نابت متصل بلحية خضراء خفيفة، ويملك وجهًا حاد التقاسيم يجعله يبدو كشخص أكبر من عمره الحقيقي.

ورغم ضخامة جسده التي تؤهله في المستقبل لأن يصبح ملاكم، إلا أنه كان هشًّا من الداخل كقطعة بسكويت غُمست في بيالة شاي؛ فكلمة واحدة قد تُفتّته لأشلاء صغيرة وأخرى قد تُرمم فُتات قلبه..

وكانت هذه الصفات هي أكبر المشاكل التي يُعاني منها صديقنا المُراهق؛ لأن رهافة قلبه المُفرطة تلك هي من كانت تجعل منه مادة يسخر منها ويتنمّر جميع زملائه في المدرسة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لذلك بدأ صديقنا المُراهق في البحث عن وسيلة ما يستطيع بواسطتها الدفاع عن نفسه وإجبار الآخرين على احترامه، بالطبع هو لن يختار أن يكون طيبًا؛ لأنه يعلم من خلال تجاربه السابقة في الحياة بأن الطيبين لا أحد يحترمهم: «كن سيئًا يحترمك الجميع» .. كان هذا شعاره..

وهكذا بدأ صديقنا المُراهق شيئًا فشيئًا بتقليد أولاد المدرسة سيئي السمعة، أولئك الذين يخافهم الطلاب، أولئك الذين حتى عُرفاء الصف لا يتجرؤون على كتابة أسمائهم في قائمة المشاغبين؛ فأصبح يدخن مع أن رائحة التبغ المحروق كانت تؤذي رئتيه اللطيفتين، وبات يتحيَّن الفرصَ المناسبة للقفز من فوق أسوار المدرسة، ويدس شعره المجعد أسفل طاقية صفراء مُحرّمة يجعلها تميل نحو اليسار قليلًا كرمز لعدم الاكتراث بشيء، ثم ولكي يحافظ على سمعته السيئة أكثر أمام بقية الطلاب فإنه كان يجلس في آخر كرسي بالصف رغم أنّ نظره الضعيف يمنعه من رؤية المكتوب على السبورة.. ولم يكن أبدًا يرفع يده للمشاركة عندما يُلقي المعلم سؤالًا في منتصف الدرس، حتى لو أنه كان يقينًا يعلم الإجابة الصحيحة.. صديقنا المُراهق ذاك: كان أنا.

***

ما زلتُ أذكر جيدًا تفاصيل اليوم الذي بدأت فيه قصتي: كان صباح الأربعاء "اليوم الثاني من عطلة إجازة صيف عام 2006" والرطوبة شديدة الكثافة في الجو حتى إن المرء ربما يُخيل إليه أن الهواء نفسه كان يتصبب عرقًا..

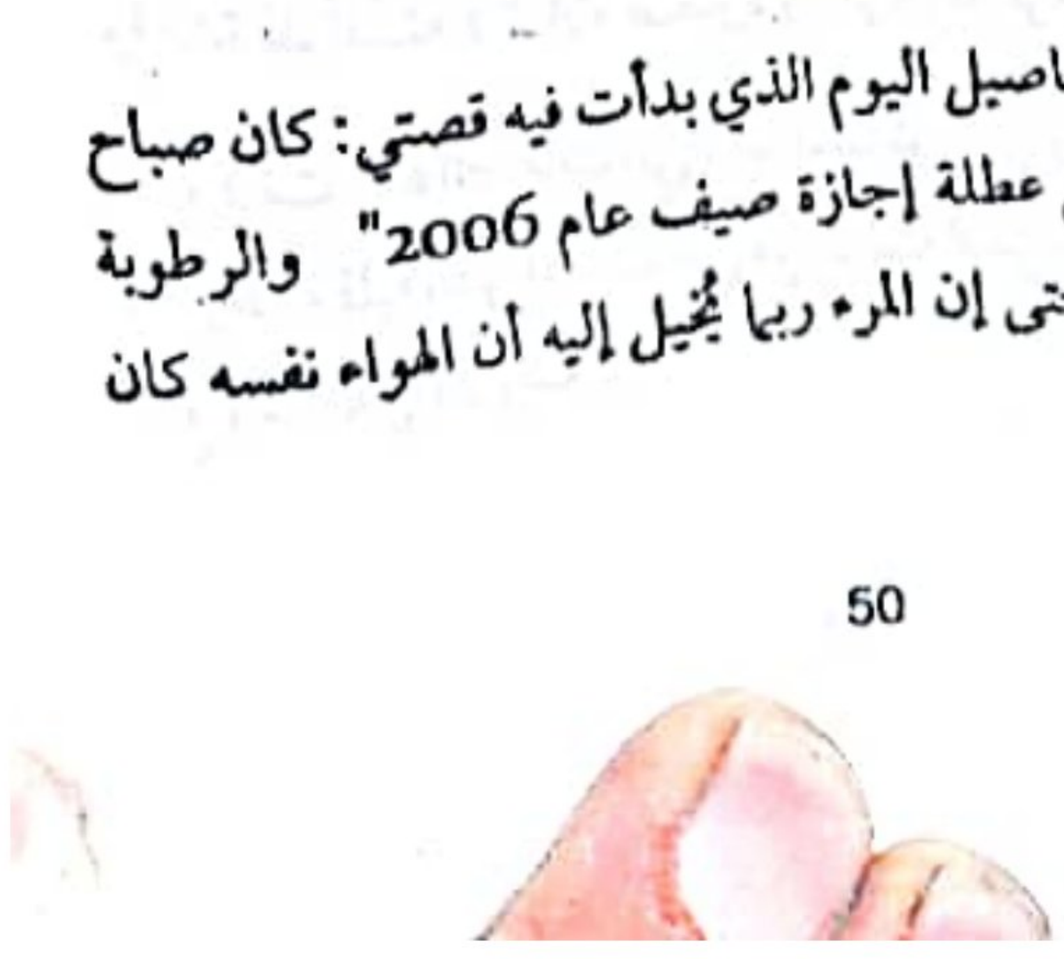

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ورغم أن جهاز تكييف السيارة كان معطلًا إلا انني كنتُ سعيدًا للغاية وأنا عائدٌ للبيت؛ فللتو فقط كنت قد استلمتُ من إدارة المدرسة ملفًا أخضر اللون، بداخله أوراق كثيرة من ضمنها: شهادة تخرجي من الثانوية العامة.

ركنتُ سيارتي أمام بوابة العمارة السكنية رقم 37 حيث كنتُ أقيم مع عائلتي في شقة سكنية مستأجرة بحي الصفا.. ثم جعلت أصعد السلالم درجتين درجتين لأزفّ البشارة لوالدتي التي كانت منذ الصباح تنتظر عودتي بفارغ الصبر.

***

ما أن فتحت أمي الباب حتى عانقتني بقوة كدتُ معها أموت مختنقًا، ثم ورغم أنها لم تكن تجيد القراءة، إلا أنها أمسكت وثيقة التخرج بيديها وأخذت تتأمل فيها بسعادة بالغة..

كدتُ وقتذاك أن أخبرها بأنها كانت تُمسك الشهادة بالمقلوب، لكنني قررت أن لا أفسد جمال اللحظة، وأخذت بصمت أطيل النظر لملامح وجهها المسالم المستدير داخل حجاب الصلاة، وأتأمل خطوط التجاعيد الدقيقة التي كانت تظهر واضحة عند زاوية عينيها وهي تبتسم:

- يا ألله كم أنا فخورة بك أيها الرجل الكبير!!

هُناك طفل حزين داخل كُل واحد منّا، هذا الطفل لا شيء في الدنيا بإمكانه أن ينتشله من كآبته ويجعله يبتسم إلا فقط عندما يسمع كلمات المديح من أمه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لماذا تقف عند الباب - سألت - ادخل لا بد أنك تتضور جوعًا.

- قبل أن أدخل أخبريني، أعاد أبي من عمله؟!

- نعم لقد عاد مبكرًا اليوم.

- هل نستطيع إخفاء موضوع الشهادة عنه لبعض الوقت؟!

- لا تقل بأنك لم تنجح!!

أجبتها وأنا أستعيد من بين يديها الشهادة وأخبئها داخل الملف الأخضر:

- لا داعي للقلق يا أمي، لقد نجحت.

- لماذا تريد إخفاءها عنه إذًا؟!

- بصراحة؟!.. لأن درجاتي في غاية السوء

- ويلك، قد يرميك والدك بالرصاص إن عرف!!

- ولهذا يجب أن نُخفيها عنه، ريثما نجد طريقة مناسبة لإخباره لاحقًا

- ولكنه سألني عنك عندما عاد من عمله قبل قليل..

- وماذا قلتِ له؟

- قلت له بأنك ذهبت لاستلام شهادتك!!

ثم وفي تلك اللحظة بالضبط ومن غير أن نشعر بخطواته وهو يقترب، ظهر والدي فجأة من خلف أمي دون أن يترك لنا فرصة لإيجاد حل للورطة:

- أين شهادتُك يا ولد؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أصبح الجو بيننا متوترًا للغاية، ولم تعد والدتي تعرف ماذا تصنع، إنها لا تريد الكذب على زوجها، وفي الوقت ذاته لا تريد أن تؤذي ابنها بقول الحقيقة؛ فهي تعلم جيدًا بأن صفعة واحدة فقط من يد والدي الثقيلة لربما كانت كفيلة بجعلي أفقد الذاكرة للأبد..

كرر سؤاله:

- أين شهادتُك يا ولد؟!

كان يجب عليّ أن أتصرف لم يكن أمامي خيار آخر.. فتحت الملف الأخضر مُكرهًا، أخرجت منه إحدى الأوراق، وقلت:

- هذه شهادتي..

أمسك والدي الشهادة بكلتا يديه الكبيرتين وأخذ يتأمل فيها مقطبًا حاجبيه، وما هي إلا لحظات حتى أصبح وجهه ممتلئًا بأمارات الدهشة:

- لا أصدق ما أراه..

اندفعت أمي بلهفة الخائفة تريد أن تستحلفه بالله أن لا يضربني غير أنه كان قد سبقها بأن رفع يده الكبيرة عاليًا، ثم هبط بها على كتفي مربتًا:

- لقد رفعت رأسنا - ثم أضاف وهو ينظر باتجاهها: لقد حقق ابنكِ يا مريم أعلى الدرجات، ونال المرتبة الأولى على جميع أقرانه في المدرسة.. لم أكن أعلم من قبل بأنّ لنا ابنًا نابغة!!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أرسلت والدتي نظرة مستفهمة نحوي، بينما أكمل أبي قائلًا قبل ينصرف:

- وعلى شرف هذا النجاح.. سنستأجر ليلة الغد استراحة، نُقيم فيها وليمة عشاء كبيرة، ندعو إليها كل الأقارب والمعارف وسكان الحارة..

•••

بعد أن انصرف أبي وتحققت أمي من أنه دخل غرفته وأغلق الباب خلفه، فإنها التفتت نحوي وعلامة استفهام كبيرة تعلو جبينها:

- هل كذبت عليّ عندما أخبرتني بأنّ درجاتك سيئة؟!

- الحقيقة نعم لقد كذبت - ثم أضفت: ولكن ليس عليكِ.

- ما الذي تقصده - سألت وكأنها بدأت تشك بالأمر - لماذا يظن أبوك أنك نِلتَ المرتبة الأولى في المدرسة؟!

- لقد ذهبتُ لقرطاسية الحي، بعد خروجي من المدرسة وآآآ..

- وماذا؟!!

- وقمتُ بتزوير الشهادة!!

•••

والدي رجل طيب القلب لكنه قابل للاشتعال من أقل تصرف قد لا يعجبه، وهذا ما كان يدفعني دائمًا لاتخاذ إجراءات احترازية عالية في التعامل معه؛ فبعد أن استلمت شهادتي من المدرسة عرفت بأنه سيقوم بحبسي طوال فترة الصيف إن رآها؛ لذلك خرجتُ لقرطاسية الحي، وقمتُ بتزوير الشهادة بعد أن دسست مبلغًا بسيطًا في يد العامل ووعدته بأن لا أشيَ به في حال انكشف أمري.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سألت أمي مُعاتبة:

- أتظن أن أمرًا كهذا لن يعرفه أبوك؟!

- المهم أن لا يعرفه قبل انتهاء الصيف.

- هكذا إذًا؟!.. أنت لا تهتم بمستقبلك الذي ضاع، ولا بالجهد الكبير الذي قمنا ببذله من أجلك، كل ما يُهمك هو أن تحظى ببعض المُتعة أثناء الإجازة الصيفية مع أصدقائك.

كنت أريد أن أقول شيئًا، لكنها سبقتني بالقول:

- أصدقاؤك هؤلاء لن ينفعوك بشيء؛ ففي هذا الوقت شهادتك فقط هي الصديق الوحيد الذي سوف ينفعك في مستقبلك..

ثم أمسكت وجهي بكلتا يديها الناعمتين وأضافت معاتبة:

- لقد وصلت لسن الرجال يا أحمد، ويجب عليك أن ترفع رأسك وتنظر للبعيد، وتفكر مليًّا بخطواتك القادمة..

- وهذا ما أفعله أنا يا أمي ولكنكِ لا تعرفين..

قاطعتني وهي تلّف ذراعيها حولي بحنان: الأم تعرف كُل شيء، أنت لا تزال فتًى طائشًا يا بني، ونظرك هذا لا يتجاوز في مداه أرنبة أنفك..

- ولكنّي بخير يا أمي، لماذا كل هذا القلق؟!

- أنت بخير؛ لأنّ لديك أمًّا وأبًا يقفان خلف ظهرك، ولكنك لن تستمر طويلًا في دائرة الأمان هذه يا بني، غدًا حين تواجه قسوة الحياة بمفردك، ستعرف حينها سبب كل هذا القلق عليك..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي تلك اللحظة جاء صوت أبي من بعيد مناديًا على أمي.. فحررت والدتي ذراعيها من حول جسدي وهتفت بخوف:

- ويلي!!.. أتظن أنه اكتشف أمر شهادتك؟!

- لا أظن؛ فلو أنه اكتشف ذلك لكان حذاؤه قد سبق صوته - ثم قلت بهدوء محاولًا ضبط أعصابي: اذهبي لتري ما الذي يريده منكِ واحذري أن يزلّ لسانكِ فيكتشف الأمر.

- وأنت ماذا ستفعل؟!

- سأبقى هنا في انتظار عودتك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

3

بعد ذهابها حاولت البقاء في مكاني محافظًا على مسافة آمنة لأستطيع المرب بسهولة في حال انكشفت الخطة، غير أنّ شيئًا يشبه الفضول أخبرني بأنّ والدي لم يقم باستدعائها إلا للحديث معها حول موضوع يخصني، فذهبت أسير على أطراف أصابعي بحذر نحو غرفتهما، وألصقت أذني على ظهر الباب المُغلق وهذا ما سمعته يدور في الداخل:

- أريد أن أسمع رأيكِ بسارة ابنة أختك؟!

- أتسألني عن رأيي فيها وأنت الذي قمت بتربيتها بعد وفاة والدها؟! لقد اهتممتَ بها أكثر حتى من اهتمامك بابنك أحمد..

- إنّ الرجل منّا لا يشعر بأنه أب إلا حين يُرزق بفتاة، وأنا أشعر تجاهها كما لو أنها أكثر من ابنة بالنسبة لي..

- وهي أيضًا بفضلك باتت تشعر وكأن أباها لم يُفارق الحياة.. يكفي أنك استأجرت لها ولوالدتها شقة في العمارة التي نسكن فيها لتُصبحا قريبًا منك وتحت رعايتك، لقد سددت الثقب الذي خلّفه لهما رحيل رب أسرتهما.

- لا شيء يعوض رحيل الأب يا مريم، ولكنّي أحاول بقدر الإمكان تقليص حجم معاناتهما.. عمومًا هذا ما كان سيفعله والد سارة، لو أنني أنا الذي كنت قد انتقلت لرحمة ربي بدلًا عنه، لا تنسي بأنه كان الأخ الذي لم تُنجبه أمي..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أعرف.. ولكن لماذا تذكر هذا الموضوع الآن؟!.. ما الذي يدور داخل رأسك يا عبد الله؟!

صمت أبي لبرهة ثم سمعته من خلف الباب يقول:

- في الحقيقة بعد أن اطَّلعت على شهادة أحمد، ورأيتُ كم هو متفوق في دراسته، وتأكدت من أن مستقبله أصبح واعدًا.. رأيت أني سأشعر بالكثير من الراحة لو أنه تزوج سارة - ثم أضاف آمرًا: مريم أريدكِ أثناء حفل العشاء الذي سنُقيمه ليلة الغد في الاستراحة أن تفاتحي أختكِ بشأن خطبة ابنتها سارة لابننا أحمد..

صحيح أنّي وقتها لم أكن أستطيع رؤية ما يدور داخل الغرفة، لكنّي كنت متأكدًا من أنّ ذلك الخبر نزل كالصاعقة على أمي؛ فقد ذهبت الكذبة أبعد بكثير مما كنّا نتوقع.

ولكن وفي الوقت ذاته الله وحده يعلم كيف قفز قلبي من مكانه وقتها لشدة الفرح حتى ظننت أنه كاد يسقط من صدري؛ فلم يكن في حياتي وقتذاك أمنية أكبر من الاقتران بسارة ابنة خالتي هوازن..

***

ما زلت أذكر جيدًا تفاصيل القدر الذي كتب بداية قصتي معها حيث كانت سارة حينذاك صبية صغيرة لم تتجاوز بعد الخامسة من عمرها، تسكن مع والديها في الهيئة الملكية بمدينة الجُبيل حيث كان والدها يعمل هُناك مهندسًا في إحدى الشركات الصناعية الناشئة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وذات مساء أحد الأيام رنّ هاتف بيتنا فذهبت والدتي لالتقاط السماعة وما أن وضعتها على أذنها حتى زعقت بكل صوتها.. هبّ والدي إليها مسرعًا ليرى ما بها، فقالت:

- لقد مات زوج أختي هوازن..

- من نقل لكِ هذا الخبر الزائف - قال أبي ثم أردف مبررًا سبب اعتقاده زيف الخبر: لقد هاتفتُ ناصر قبل ساعتين، وطلبتُ منه الذهاب من الجيل للدمام ليقوم بإنجاز بعض الأعمال بالنيابة عني، وقد كان يحادثني وهو يضحك ويبدا أنه في أفضل صحة..

اتسعت عينا والدتي الغارقتان بالدموع وهتفت:

- لهذا السبب إذًا

بشك همس أبي:

- لهذا السبب ماذا؟!

- لقد قالت هوازن بأن رجال الإسعاف أخبروها أنّ الوفاة حدثت بسبب حادث وقع لزوجها في الطريق السريع المؤدي للدمام، وقالت بأنها لا تعرف ما الذي جعل زوجها يذهب إلى هناك..

كانت الفاجعة على أبي وقتها مضاعفة، فحزن شديد يعتصر قلبه على وفاة صديقه الأكثر قربًا، وضمير يؤلمه لشعوره بأنه وبطريقة ما كان هو السبب في تلك الوفاة؛ فلو أنه لم يطلب من صديقه الذهاب للدمام لما كان قد حدث ما حدث..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لهذا وكنوع من الوفاء لصديقه من جهة، ولإعطاء إبرة مخدرة لضميره الثائر من جهة أخرى؛ فإنّه قرر لاحقًا أنه سيكون المسؤول عن إعالة خالتي وابنتها الصغيرة سارة، وطلب منهما أن تنتقلا للعيش معنا في جلنة، واستأجر لهما شقة بالدور الأرضي في العمارة التي نسكنها، وخصص لهما مصروفًا شهريًا ورعاية كاملة، ومن هنا بدأت قصتي مع سارة.

في ذلك الوقت كان عمري لا يزال ست سنوات وكنتُ أُعاني من ظُلمة شديدة في روحي بسبب الوحدة التي كنت أشعر بها.. وكانت هي في ذلك التوقيت بمثابة النجمة التي هبطت من السماء لتُضيء روحي المُظلمة..

استمرت علاقتي بها بريئة وكنت كُل يوم أنغمس في تفاصيلها أكثر، وحين تجاوزنا بعد سنوات مرحلة البلوغ بدا أنّ هُناك شيئًا غريبًا آخر مختلف ولذيذ يجذبني إليها، حتى إنّي قلت لها ذات مرة:

- إني أشعر بأنّ هُناك هزّة قوية تحدث في قلبي كُلما سمعت اسمي يخرج من بين شفتيكِ.. أتعلمين؟!..أنتِ تنطقين اسمي بطريقة مغايرة أشعر معها بأنّي الوحيد الذي سُمي في العالم بهذا الاسم..

- لماذا تشعر بهذا النحو؟

- لستُ واثقًا، ولكن ربما هو الحب..

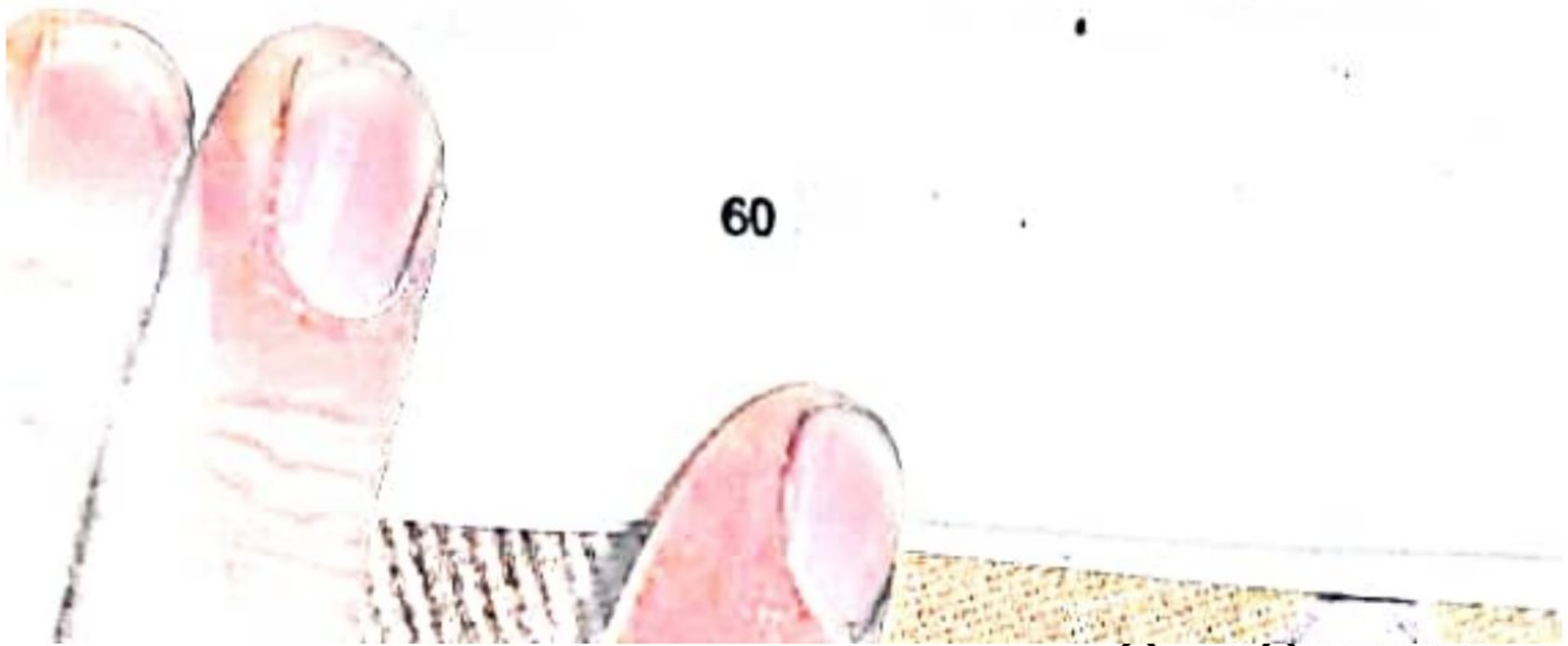

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استطاع والدي سريعًا أن يلمحّ الدخان المتصاعد من مدخنة قلبي المُشتعل حُبًا، وأصدر قرارًا يقضي بحجبها عني؛ لأننا كما قال أصبحنا في السن الذي لم يعد لأحد منّا الحق في التكشف على الآخر..

كانت رقابة أولياء أمورنا علينا مشددة، ولم يكن وقتذاك لدى أحدٍ منّا هاتف نقّال يستطيع بواسطته مهاتفة الآخر؛ لذلك كان يجب علينا اختراع طريقة ما نستطيع من خلالها إبقاء جمرة الحُب مشتعلة؛ فأصبحتُ أكتب لها رسائل ورقية وأهرّبُها لها أسفل دواسة عتبة الباب، أو داخل أصص الزرع الصناعية المنتشرة في مدخل العمارة، أو في القدور والأواني النحاسية التي كانت والدتانا باستمرار تتبادلانها..

وكنتُ أحرص على تغيير مواقع التسليم كل أسبوع حتى لا تقع رسائلي في قبضة أحد أولياء أمورنا فيشددوا علينا الحصار.. أما سارة فإنها لم يسبق لها أن كتبت لي رسالة واحدة، وحين سألتها ذات مرة عن السبب قالت بأنها كلما أمسكت القلم أصابتها الحيرة ولم تعرف ماذا تكتب، ولكنها طلبت مني أن أواصل الكتابة إليها قائلة أنّ مرآتها أخبرتها ذات مرة بأنها تُصبح فتاة أجمل كلما قرأت كلامًا لطيفًا كُتب من أجلها..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

4

ما زلت أقف خلف الباب المُغلق، أسترق السمع وأبتسم سعيدًا بالاقتراح الذي طرحه أبي.. وفي الحقيقة هو لم يقترح أمر خطبتي لسارة إلا فقط لأنه اطَّلَع على شهادة تخرجي واطمأن على مستقبل الفتاة التي بات يَعُدها مثل ابنة له أو أكثر.. وكانت أمي تعلم تلك الحقيقة جيدًا؛ لهذا فإنها كانت تحاول جاهدة انتشال تلك الفكرة من رأسه بدون أن تتسبب في افتضاح أمري:

- ألا ترى أن الوقت ما زال مبكرًا على أن تخطب لأحمد؟!

- نحن فقط سنطلب له يدها ليس أكثر، وبعد أن يُنهي دراسته الجامعية، ويجد لنفسه وظيفة مرموقة نحدد لهما موعدًا للزواج..

طرأت في رأس أمي فكرة جيدة، فقالت:

- ما رأيك أن نجس نبض أحمد، فلربما كان لديه رأيٌ آخر..

مُتأففًا أجاب أبي:

- لماذا تريدين تضييع الوقت؟! هو لن يرفض فكرة الزواج منها..

قالت بحكمة:

- لم أقل بأنه سيرفض ولكن ربما يرغب أحمد في هذه الفترة أن يركز على أمور دراسته أكثر، ولا يريد لشيء آخر أن يشغل باله.. نحن لن نخسر شيئًا لو أننا استشرناه في هذا الموضوع..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فكر أبي قليلًا بما قالته أمي، ثم قال مقتنعًا:

- قد يكون معكِ حق، اذهبي واسأليه عن رأيه إذًا..

أحست والدتي بأنّ جبالًا من الهموم تزحزحت من فوق صدرها، فبهذه الطريقة بات بإمكانها احتواء الموقف والتنسيق معي لإيجاد مخرج من هذه الورطة.. ولكن سرعان ما عادت جبال الهموم تلك للجثوم مرة أخرى فوق صدرها، وذلك عندما صرختُ أنا لفرط الحماس من خلف الباب وبغباء منقطع النظير قائلًا:

- أنا موافق، أريد أن أتزوج سارة!!

***

مساء اليوم التالي: استأجر والدي استراحة كبيرة لإقامة وليمة العشاء احتفالًا بمناسبة تخرجي من الثانوية العامة.. وبعد صلاة العشاء بنصف ساعة بدأ الجيران والأقارب بالتقاطر علينا واحدًا واحدًا، أما أنا فإني بقيتُ مكاني جالسًا أرد عليهم التباريك والتحايا، وأتحيّن الفرصة المناسبة للذهاب لقسم النساء ومحاولة اختلاس نظرة عابرة لسارة، وجعلها تراني وأنا في كامل أناقتي مرتديًا الثوب والشماغ..

وحين أصبح المجلس ممتلئًا بالمعازيم أدركت أن الفرصة المناسبة قد حانت؛ فمع امتلاء المجلس بالضيوف لن يُلاحظ أحد غيابي، فنهضت من مكاني مُسحبًا بهدوء ولكن قبل أن أبتعد من هناك، حدث ما لم أكن أتوقع حدوثه أبدًا، فقد وصل للاستراحة ضيف جديد:

لقد جاء مدير المدرسة!!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شعرت بمغص شديد وقتها.. وأظنّ أن جميع من هُناك استطاعوا
تلك اللحظة سماع صوت الألعاب النارية التي تفجرت في سماء بطر
احتفالًا بالعيد القادم..

هبّ والدي نحو مدير المدرسة مرحبًا ومُهللًا بقدومه.. أما أنا فإني
ألغيت فكرة ذهابي لرؤية سارة، وعدت أجلس مكاني لأفكر بخطة أحاول
بها منع حدوث الكارثة..

كان مدير مدرستنا رجلًا ثرثارًا، يحب التحدث عن نفسه كثيرًا ويتمتع
بدمٍ ثقيلٍ ويكره الأشخاص الذين لا يضحكون على نكاته السمجة..

حاولت مرارًا يومذاك التقرّب إليه لأشرح له الموقف وأطلب منه أن
لا يفضح أمري، لكنّه كان طوال الوقت يحدثني عن إنجازاته في الحياة
ولا يترك لي فرصة للكلام.. وحين كفّ أخيرًا عن الحديث بعد ساعة
ونصف الساعة من الثرثرة المتواصلة قلت:

– أستاذ مازن.. بخصوص الشهادة، أنا لا أريدك أن تخبر أبي بأنـ..

وهنا قطع أبي علينا الحديث بأن قال بصوت عالٍ للضيوف:

– تفضلوا إلى العشاء..

وما أن سمع الأستاذ مازن النداء حتى تجاهلني قافزًا من مكانه مسرعًا
نحو صالة الولائم كما لو أنه كان مشاركًا في سباق طويل ويريد أن يصل
لخط النهاية أولًا..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أذكر أنّ العشاء كان مكونًا من خمسة صحون كبيرة مليئة بالأرز واللحوم، وكانت عادات قبيلتنا تقتضي أن يجلس كُبراء العائلة حول الصحن الأكبر والأكثر وفرة بالطعام من بقية الصحون الأخرى تقديرًا لمكانتهم وتقدمهم في العمر..

لم يكن يُهمني في ذلك الوقت غير شيء واحد فقط وهو: البحث عن الصحن الذي كان يجلس إليه الأستاذ مازن؛ لأجلس بجانبه وأكمل حديثي معه..

لم تستغرق عملية البحث تلك طويلًا، فقد وجدته متربعًا بمحاذاة أحد الصحون مستغرقًا في التهام الطعام، وقد كان لحسن الحظة ثمّة مكان فارغ بجانبه، ولكن ما أن هممت بالذهاب إليه حتى امتدت يد كبيرة وأمسكت بي قبل أن أتحرك.. لقد كان أبي وقد جاء ليقول:

- أنت ستجلس إلى الصحن الأكبر..

ولأني كنت أريد التقرّب من الأستاذ مازن بأيّ طريقة فإني قلت لوالدي محاولًا التملص من طلبه ذاك:

- أليس من المعيب أن أجلس إلى ذلك الصحن وهُناك من هم أكبر مني شأنًا وسنًّا يا أبي؟!

ابتسم ثم همس في أذني بفخر قائلًا:

- لا أحد أكبر منك هذه الليلة، أنت أمير المكان وهذا الصحن لا يليق بأن يجلس إليه غيرك أيها العالِم النابغة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شعرت بحزن كبير وأنا أشاهد الفخر يبرق في عينيه، وشعرت أيضًا بخوف شديد وذلك عندما تخيلت ما قد يحدث لي حين تُكتشف كذبتي، ولهذا كان يجب عليّ أن أجد حلًّا سريعًا فقلت:

- لماذا لا تدعو الأستاذ مازن للجلوس معي إلى هذا الصحن؟!- ثم أضفت لأقنعه: إنّه يستحق يا أبي فلولا توجيهاته في المدرسة لما كان بإمكاني تحقيق كل هذا النجاح والتفوق..

- معك حق، سأذهب وأطلب منه الانتقال للجلوس معك..

وليته لم يفعل، فبينما كان والدي يقوده للجلوس معي إلى الصحن ذاته قال الأستاذ مازن مُدعيًا التواضع بأنه أصغر مقامًا من أن يجلس للأكل على الصحن الكبير مع كُبراء العائلة.. ولكن والدي قال له بصوتٍ عالٍ حينها كما لو أنه أراد أن يتفاخر بي أمام ضيوفه:

- بل مقامك كبير جدًّا يا أستاذ مازن؛ فلولا توجيهاتك الإدارية في المدرسة وحرصك الزائد على أبنائك الطلبة، لما كان ابني أحمد قد حصلَ على الدرجة الكاملة في كل المواد وحقق المرتبة الأولى على جميع صفوف الثالث الثانوي!!

كانت الفاجعة الحقيقية هي عندما رد الأستاذ مازن بتعجب قائلًا:

- لحظة.. ولكن ابنك أحمد لم يحقق المرتبة الأولى!!

شعرت لحظتها بأنّ الدنيا تدور بي، وأن رأس الخروف المشويّ على الصحن الأكبر كان يغمز لي بعينه ويبتسم كما لو أنه يقول: لقد انتهى أمرك..

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ماذا تعني بكلامك هذا، لقد اطّلعت بنفسي على شهادته..

- لا بد أنّ هناك لبسًا في الموضوع - ثم أشار المدير نحوي وقال ساخرًا: فابنك هذا كان معرضًا للسقوط في أكثر من مادة، ولكنني طلبت من المعلمين مساعدته على النجاح لأنه خريج..

سدد لي والدي حينذاك نظرة غاضبة لم يسبق لي في حياتي أن رأيت مثلها؛ لقد فهم الأمر وعرف أنّي قمت بتزوير الشهادة التي اطلع عليها..

كنت أعتقد أنه ربما سيقوم بفصل رأسي عن جسدي ووضعه فوق الصحن الأكبر بجوار رأس الخروف المشويّ.. ولكنه لفرط الغضب صمت ولم يفعل شيئًا؛ ذلك أنّ هناك بعض الخيبات لا يُجدي العتاب معها نفعًا..

اصطنع والدي ابتسامة زائفة وطلب من الضيوف إكمال طعامهم، ثم غادر صالة الولائم مكسور الخاطر، فنهضت من مكاني أتبعه للخارج، ولكنّي ما أن اقتربت منه حتى سمعت صوته وهو يُحادث والدتي عبر الهاتف ويطلب منها عدم التقدم لخطبة سارة..

كنت أنتظره وراء الحائط حتى يُغلق الخط وأذهب إليه لأعتذر، ولكنّه ما أن أغلق الخط حتى أجهش بالبكاء.. لم يسبق لي أن رأيت والدي يبكي، لقد كنت أظن بأنّ الآباء لا يبكون ولكنّي اكتشفت يومذاك بأنّهم يبكون فقط حين يتعلق الأمر بخوفهم على مستقبل أبنائهم، لم أكن أعرف كيف أتصرف، ولكن أذكر أنّي استدرت وركضت مبتعدًا..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

5

ظلّ والدي لأيام طويلة لا يتحدث معي أو ينظر إليّ، وكان ينصرف مبتعدًا كلما لمحني أتأهب للجلوس في المكان الذي يكون جالسًا فيه.. لقد كان في صمته ذاك الكثير من العتاب، وكانت صدوده تُخلّف داخلي ألمًا لا يُطاق، وكم تمنّيت وقتها لو أنه يضربني أو يحبسني، مقابل عدم تجاهله إياي بتلك الطريقة.. ثم وللتعبير عن الندم فإني حبست نفسي داخل غرفتي، وأصبحت لا أخرج منها إلا عند الضرورة..

***

بعد ثلاثة أشهر من المقاطعة، وبينما كنت نائمًا ذات ظهيرة، إذ طرق أحدهم باب غرفتي، وحين فتحت الباب وجدت أبي واقفًا أمامي بطوله المَهيب ونظراته القاسية وهندامه العسكري الذي عاد به للتو من عمله:

- هل أديت صلاة الظهر مع الجماعة؟

- آآ.. بالطبع أديتها

سأل بطريقة ممازحة: وما الذي قرأه الإمام في الصلاة؟!

في الواقع لم أؤدِّ صلاة الظهر مع الجماعة في ذلك اليوم، ولكنّي كنت أريد إرضاءه بأي طريقة لهذا كذبت، ولهذا أيضًا فإنه حين سألني ما الذي قرأه الإمام في صلاة الظهر أجبته مندفعًا وقد غاب عن بالي أنّ الظهر ليست من الصلوات الجهرية:

- الفاتحة في الركعة الأولى، والإخلاص في الركعة الثانية!!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في تلك اللحظة نظر والدي إليّ نظرة تشي بخيبة أمله؛ هو لم يكن مستاءً لأني كذبت عليه، بل ربما لأنه تأكد حينها أكثر بأنّ له ابنًا نابغًا في الغباء..
وبدلًا من أن يبدأ معي جولة عتاب جديدة، قال شيئًا غريبًا:

- أتسمح لي بأن أكون صديقك يا أحمد؟

عرفت من سؤاله ذاك بأنه ساعتني، فعانقته من شدة الفرح وقلت:

- بالتأكيد أسمح لك بأن تكون صديقي يا عبد الله..

استغرب عندما سمعني أناديه باسمه المُجرد؛ فقلت مبررًا:

- لا تستغرب فأنا في العادة أنادي أصدقائي بدون رسميات..

- وهل تدع أصدقاءك في العادة يقفون على عتبة بابك؟

- بالطبع لا، تفضل - قلت وأنا أفسح له مجالًا للدخول.

تقدم والدي في الغرفة الطافحة بالملابس المَرميّة في كل مكان، والأرضية المتلئة بعبوات عصير فارغة وصحون بلاستيكية تحوي بداخلها بقايا أطعمة نصف مأكولة..

جلس على الكنبة وجلست مقابلًا له على طرف السرير، قال:

- بخصوص ما حدث، في ليلة الاستراحة..

قلت مُظهرًا له صدق الندم: أبي أنا آ..

قاطعني قبل أن أُكمل: لا تعتذر.. أنا السبب؛ فلو أنّي منذ البداية كنتُ أبًا متفهمًا.. لما اضطررت للكذب عليّ - ثم باح بحزن: لقد كنتُ طيلة حياتي أحلم أن أراك في أعلى المناصب، ولكن يبدو أنني عن غير قصد أنسدتُ كل شيء بعصبيتي وحرصي الزائد عليك..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلتُ مواسيًا: لا تقلق يا أبي، منذ الغد سأبدأ البحث عن جا
تقبلني، وسأكمل دراستي وستراني يومًا في أعلى المناصب.

بصراحة رد والدي:

- يا بُني.. أتكذب عليّ أم على نفسك؟! فبدرجاتك هذه التي حصلت عليها، لن يسمح لك أمن الجامعة بالعبور من بوابة الدخول حتى.

قلتُ مطأطئًا رأسي: أنا آسف، لقد خذلتك..

أجاب بنبرة ذات مغزى: ربما لم تخذلني بعد..

رفعت رأسي أنظر إليه: ماذا تقصد؟!

- أرأيت القرطاسية التي قُمتَ بتزوير شهادتك فيها؟!

- نعم، ما بها؟!

- لقد تم اكتشاف العامل الذي ساعدك على التزوير، وقام مالك القرطاسية بطرده البارحة.

بتأنيب ضميرٍ قلت: أأنا من كان السبب في طرده؟!

- لا.. لم تكن أنت.. لقد تقدم الكثير من أولياء الأمور بشكوى لمالك القرطاسية يخبرونه فيها بأنّ ذلك العامل كان طوال الوقت يعرض على أبنائهم الطلبة مساعدات من ذلك القبيل.. فقام المالك بطرده.

تنهدتُ بارتياح بعد أن عرفت أنّي لست السبب في قطع رزقه ولكنّي لم أكن أعرف حينها لماذا يفتح والدي معي ذلك الموضوع:

- لماذا تُحدثني الآن بشأن ذلك العامل يا أبي؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لأنك ستعمل في القرطاسية؛ فمالكها صديقي وقد وافق على توظيفك فيها، وستبدأ العمل لديه منذ يوم الغد..

- لا لا لا.. أنا غير موافق!!.. فأنا لم أدرس الابتدائية والمتوسطة والثانوية، حتى أعمل في نهاية المطاف مديرًا على قرطاسية صغيرة كتلك!!

- ومن قال لك بأنك ستعمل مديرًا عليها؟

- ماذا سأعمل إذًا؟!

- ستعمل بدلًا من العامل الذي طُرد..

- وكيف ترضاها لابنك؟ لن توافقك أمي لو أنك أخبرتها

- لقد أخبرتُها بالفعل، وقالت بأنه لا عيب في العمل

- والناس؟!.. ماذا سيقول الناس عن ابنك؟!

- لا تفكر بكلام الناس؛ فكلامهم لن يَملأ جيبك بالنقود

- ماذا تعني؟!

- أعني أني منذ هذه اللحظة سأقطع عنك المصروف، ولن تجد قرشًا واحدًا في جيبك إن لم تعمل وتحصل على المال بجهدك..

قلت غير مصدق:

- ستقطع عني المصروف؟!

- نعم - أجاب ببرود ثم أكمل: فأنت يجب عليك أن تبدأ في تحمل مسؤوليتك بنفسك..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

6

بعد يومين بدأتُ العمل في القرطاسية، ورغم أنّها كانت في أغلب الأوقات تكاد تخلو من الزبائن إلا أن مالكها العجوز، لم يكن ليسمح لي أو لغيري من العمّال بأخذ قسط ولو قليل من الراحة.

كان الوقت هُناك يمضي بطيئًا، ولم أكن أفعل شيئًا أكثر من أن أصلب يديّ خلف ظهري وأحدق عبر زجاج النافذة في السيارات العابرة..

وربما الشيء الوحيد الذي كان يُخفف عنّي وطأة الضجر القاتل هناك هو التفكير بالرسالة القادمة التي سأكتبها لسارة حالما ينتهي وقت العمل وأعود للبيت..

استمرّ ذلك الروتين الممل يرافقني لأسابيع طويلة، حتى جاء ذلك اليوم الذي فُتح فيه باب القرطاسية، ودخلت تلك المرأة الغريبة..

***

فبينما كنت أقوم ذات صباح أربعاء بفتح وجرد الكراتين التي كانت قد وصلتنا للتو من تاجر الجملة، إذ فُتح باب القرطاسية ودخلت امرأة كانت ترتدي عباءة مخصّرة، تكشف عن وجهٍ ما زال جميلًا رغم تقدمه في العمر:

- هل يوجد لديكم قسم للكتب الأدبية هُنا؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان في القرطاسية قسم صغير يضم عددًا لا بأس به من الكتب، ولكنني لم أكن أعرف ماذا كانت تعني بقولها كتب أدبية فسألتها:

- أتقصدين كتبًا لتأديب الأطفال؟!

- بل لتأديب الروح - قالت ذلك ثم أضافت بلسان فصيح: فالأدب هو كل ما يُعبر به الإنسان عما يدور بداخل قلبه، كالشعر والقصة والرواية والخاطرة.

أجبتها: آه نعم يا أمي لدينا قسم في آخر هذا الممر يضم عددًا من هذه الكتب التي تقولين عنها.

أذكر أنها قالت موبِّخة:

- أمي هذه تقولها للتي حملتك ببطنها تسعة أشهر وأنجبتك..

- لماذا غضبتِ؟!.. كنت فقط أريد أن أُظهر لكِ احترامي!!

- إن أردت أن تُظهر احترامك لامرأة لا تعرف اسمها فقل لها يا سيدة..

- حسنًا.. أنا آسف يا سيدة!!

- أين مالك هذه القرطاسية؟!

كان مالك القرطاسية تلك الأيام يشكوني لوالدي كل يوم تقريبًا بسبب إهمالي وتأخري في الحضور، وسرحاني المبالغ به أثناء أوقات العمل؛ لذلك عندما قامت تلك المرأة بالسؤال عنه ظننت أنها تُريد أن تشكوني إليه؛ فسألتها بقلق: ما الذي تريدينه من مالك القرطاسية؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أجابت وكأنها استشعرت ما أفكر به:

- لا تقلق لن أشكوك إليه - ثم أضافت: كل ما في الأمر هو أني كاتبة ولديّ رواية أصدرتها مؤخرًا وكنت أريد توزيعها على المتاجر التي بها أقسام مخصصة للأدب؛ لذلك سألتك إن كان لديكم قسم للكتب الأدبية هنا أم لا.

حينذاك كنت شخصًا لا يهتم بالأدب ولم يسبق له في حياته أن أمسك كتابًا لقراءته غير الكتب الدراسية، إلا أنّي في الوقت ذاته كنت أطمح لتحسين قدراتي الكتابية؛ فقط لكي أستطيع إبهار سارة بكتابة رسائلي القادمة إليها:

- قد يصل مالك القرطاسية في أي وقت، ارتاحي ريثما يصل..

جلست المرأة الكاتبة على أحد الكراسي المخصصة للزبائن، وأخرجت من حقيبة يدها مُفكرة صغيرة جعلت تدون عليها بعض الملاحظات.. أما أنا فإنّي كنت مترددًا بشأن التحدث إليها، ويبدو أنها لاحظت تردديّ ذاك فسألت:

- ألديك ما تريد قوله؟

- لا تشغلي بالك - قلت متفاجئًا بمبادرتها - لا شيء مهم.

- ما اسمك؟

- آآآ.. أحمد - صمتُّ قليلًا ثم سألت: وأنتِ؟

- تريد معرفة اسمي الحقيقي أم الذي أضعه على أغلفة كتبي؟

- اسمكِ الحقيقي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مدّت يدًا في الهواء وقالت:

- شذى جابر.

بقيت يدُها معلّقة في الهواء لبعض الوقت دون أن أمد يدي لمصافحتها..

لقد كانت تلك أول مرة تمد لي فيها امرأة غريبة يدها لمصافحتي..

قلت مُحرجًا:

- آسف ولكن ثمة فتاة تُحبني، وستحزن كثيرًا لو عرفت أني صافحت يد امرأة غريبة..

وبينما كانت يدها لا تزال معلّقة في الهواء، سألت لتختبر ولائي:

- صافح يدي إذًا ولا تخبرها

- سوف تفضحني عينايَ حين أراها..

قالت وهي تَخفض يدها: أنت لطيف فعلًا، وهذا الأمر يجعلني أحترمك أكثر - ثم ابتسمت وأضافت متسائلة: قُل الآن ما الكلام الذي يدور في رأسك، لكنك متردد في قوله؟!

- أريد أن أعرف كيف أطوّر مهاراتي الكتابية.

- أتطمح بأن تُصبح كاتبًا؟!

- أوه لا.. لا أعتقد.. أنا لا أصلح لأن أكون كاتبًا.. كل ما أطمح إليه فقط هو أن أبهر الفتاة التي أُحبها بكتابة الرسائل إليها.

- ما اسمها؟!

- سارة!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قالت من باب الدعابة:

- وهل هي جميلة مثلي؟!

قلت وقد أخذت الأمر على محمل الجد:

- لا، هي أجمل.

- أنت لطيف ولكنك قليل الأدب بعض الشيء.

قلتُ مصححًا:

- أعتذر لا أقصد الإهانة.. ربما تكونين جميلة ولكن ليس في عيني فأنا لا أرى فتاة جميلة غيرها، وإلّا لما كنتُ صادقًا في حبي لها، ألست كذلك؟!

سادت بيننا لحظة صمت قصيرة قبل أن أردف لها شارحًا:

- الجمال هو عين الحُب؛ لذلك نحن لا نرى أجمل ممن نحب.

- وأنا أين أرى جمالي؟!

- ترين جمالكِ إذا نظرتِ إلى عينيْ من يُحبك.

- أين قرأت هذا الكلام؟!

- لم أقرأه في مكان، هذا ما أومن به.

- يبدو أنك تتمتع بحسٍّ أدبي عالٍ يا أحمد - قالت ذلك ثم أخرجت من الجيب الخارجي لحقيبتها كرتًا شخصيًا مدته لي وأضافت: هذا رقمي الخاص.. وفي أي وقتٍ تقرر فيه أن تصبح كاتبًا سأكون سعيدة بمد يد العون لك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعندما رأت أنّي لم آخذ منها الكرت قالت للتوضيح:

- أنا لا أعمل مع دار للنشر، أنا أقوم بطباعة وتوزيع الكتب بنفسي وأستطيع مساعدتك لاحقًا إن فكرت بأن تصبح كاتبًا في المستقبل، بترويدك ببعض أرقام المطابع والمكتبات التي أتعامل معها..

- ولكن أنا لا أصلح لأن أكون كاتـ..

قاطعتني قبل أن أكمل جملتي:

- نحن لا نعلم ما تُخبئه لنا الأيام القادمة، لذلك لن تخسر شيئًا لو أنك أخذت هذا الكرت، فربما احتجت إليه يومًا..

لقد كانت محقة في كلامها حين قالت بأننا لا نعرف ما تخبئه لنا الأيام، بالإضافة إلى أنّي فعلًا لن أخسر شيئًا لو أخذت معلومات اتصالها، فأخذت الكرت من يدها وخبأته داخل جيبي.. بعد ذلك قالت تجيب عن السؤال الذي سألتها إياه من قبل بخصوص كيفية تحسين قدراتي الكتابية:

- هُناك طرق كثيرة لتحسين قدراتك الكتابية، ولكن أخبرني أولًا، هل تقرأ؟!

- في الحقيقة لا.

- إذًا لن يتحسن مستواك في الكتابة.

- أنا لا أحب القراءة.

- ولكنك تحب تلك الفتاة أليس كذلك؟!

- أكثر من كُل حرف كتبته يدُكِ، أغزر من مُخيلتك الأدبية.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قالت مبتسمة وكأن إجابتي أعجبتها:

- إذًا اقرأ من أجلها.. لأنك لن تستطيع إبهارها في رسائلك القادمة، إليها طالما أنك لا تقرأ.

- وماذا أقرأ؟

مبتسمة قالت:

- لقد أخبرني قبل قليل شخص في غاية اللطف بأنّ لديكم قسمًا في آخر هذا الممر يضم عددًا من الكتب الأدبية.. اذهب إليه واقرأ كل ما تقع عيناك عليه.

كانت ستقول شيئًا آخر ولكن في تلك اللحظة دخل مالك القرطاسية وقطع علينا حديثنا، فانسحبت من هُناك تاركًا لهما المجال للتحدث بحرية، وعدت لعملي وأنا أفكر بكلامها..

في الحقيقة لم أنتظر حتى اليوم التالي، فبعد أن انتهيت من جرد وتوزيع البضاعة التي كانت داخل الكراتين، ذهبت مباشرة نحو قسم الكتب الأدبية الواقع في نهاية الممر، تناولت كتابًا عشوائيًا من على أحد الرفوف وبدأت أقرأ، ومن هُناك بدأ السحر بالتدفق لقلبي.

***

مع مرور الأيام لم تعد القضية مجرد تحسين قدراتٍ كتابية فقط، لقد باتت القراءة شيئًا يُشبه الإدمان، وبدأت روحي تنزلق شيئًا فشيئًا داخل الكتب، حتى بتُّ لاحقًا أُخالص كل شيء على عجالة لأتفرغ للقراءة، فلا شيء بات بإمكانه أن يمنحني البهجة أكثر من عُزلة وكتاب..

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لقد كان مجرد التفكير في المستقبل كفيلًا بأن يُثير بداخلي زوابع لا تنتهي من الخوف، وكانت اللحظات القليلة التي أستطيع أن أتلَمَّس فيها ملامح الأمان تحدث فقط عندما أقرأ؛ لذلك بتُّ أضاعف ساعات القراءة، وبات الراتب الضئيل الذي كنت أتقاضاه نهاية الشهر يذهب كله في شراء الكتب، إلى أن جاء مالك القرطاسية يومًا وأخبرني بأنّي أستطيع أن أقضي ساعات العمل كلها في القراءة والاطلاع، وبأنّي أستطيع أيضًا أخذ أيّ كتاب أريده معي للبيت..

لقد قال مالك القرطاسية ذلك، دون أن أدري عن السر الغامض الذي كان يقف خلف طيبة قلبه المفاجئة..

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

7

جدة،

شارع الشُّربتلي،

«بعد خمسة أشهر، من لقائي بتلك المرأة الكاتبة»

ذات صباح كنت أقود سيارتي متعجلًا للذهاب للقرطاسية، لكي أُسلِّمَ للمالك بعض الفواتير التي كان قد أوصاني بإحضارها في طريقي من أحد تجار الجملة..

ثم وبينما أنا في الطريق إذ لمحت من بعيد الضوء الأخضر لإشارة المرور، فزدت من سرعة السيارة، ولكنّي ما أن أقتربت منها حتى تحول ضوؤها للأصفر.. وبدلًا من أن أحاول تهدئة السيارة إلا أنّي ضاعفت سرعتها أكثر، مما جعلني أتجاوز الإشارة بعد أن أصبحت حمراء..

كان ثمّة سيارة مرور بالقرب من هناك ولكنها لحسن الحظ لم تتنبه إليَّ – أو هذا ما ظننته في البداية – ولكنّي ما كدت أن أتجاوز الإشارة بما يُقارب النصف كيلومتر حتى صادفتُ أمامي نقطة تفتيش كانت منصوبة قبل دوار الزهرة[1]

---

١ دوار كان يقع بجدة، على تقاطع شارع الشُّربتلي مع الأربعين، قبل أن تتم إزالته عام 2013

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخذ الجندي رخصتي، وطلب مني أن أوقف سيارتي وأن أعود إليه، وحين فعلتُ مثلما طلب، تفاجأت بأن رأيته يقوم بفتح الباب الخلفي لسيارة المرور ويأمرني للصعود إليها وهو يقول:

- لقد قطعت إشارة مرور، وستدخل التوقيف لمدة 24 ساعة.

كانت ملامحه الصارمة تشي بأنه لن يدعني أذهب مهما توسلت إليه، لذلك لم يكن أمامي إلا حل واحد فقط وهو: الاتصال بوالدي؛ فمنصبه الرفيع في وزارة الداخلية يضمن لي خروجًا أكيدًا من تلك الورطة.. ثم ولأني لم أكن أملك هاتفًا وقتذاك فإني طلبتُ من الجندي أن يُعيرني هاتفه المحمول مبررًا:

- يجب أن أُهاتف أبي وأخبره أين سأذهب حتى لا يقلق عليّ.

مد لي الجندي هاتفه النقال دون أن يعلّق، فأدخلت رقم والدي الذي كنت أحفظه جيدًا وأجريت الاتصال وما هي إلا ثوانٍ قليلة حتى فتح الخط، وشرحتُ له هامسًا ما حدث بالضبط ثم طلبت منه برجاء أن يتحدث مع الجندي ويقنعه بالعدول عن رأيه..

ما أن ألصق الجندي سماعة الهاتف على أذنه وعرف هوية والدي حتى لمحت الاهتمام باديًا على ملامح وجهه، ثم سمعته يقول بجدية قبل أن يُنهي المكالمة:

- حاضر، سأفعل كما أمرت..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أعتقدت أن المشكلة حُلّت؛ فانسحبتُ عائدًا نحو سيارتي، ولكنّي
كدتُ أبتعد بضع خطوات حتى قال الجندي: إلى أين أنت ذاهب؟!
- لأواصل طريقي للعمل، فهناك فواتير كثيرة يجب عليّ تسليمها..
- ليس لثلاثة أيام قادمة، لقد طلب والدك أنْ يتم حبسك في التوقيف
لمدة 72 ساعة بدلًا من 24.. لتحترم إشارة المرور في المرة القادمة.

***

قسم المرور بحي الصحافة:

كانت غرفة التوقيف صغيرة لا تكاد تتسع لعشرة أشخاص.. ورغم ذلك إلا أنّ المحبوسين بداخلها عندما دلفت إليها كان عددهم يتجاوز العشرين رجلًا، فتحاشرنا هُناك جميعًا حتى بات الواحد منّا في مقدوره الاستماع لما يدور في ذهن الآخر.

ذهبت أجلس في زاوية غرفة التوقيف غاضبًا لأنّ القراءة ستفوتني لمدة ثلاثة أيام قادمة، ولأنّ والدي أيضًا لم يكتفِ فقط بالتخلي عني، بل إنّه أمر الجندي بزيادة مدة حبسي!!

أذكر أنّ الدقيقة هُناك كانت تمضي كما لو أنها لا تنتهي، ولم يكن بحوزتي ما أتحايل به على الوقت لأجعله يمرّ بسرعة، حاولتُ أن أُغمض عينَيّ وأفكر بسارة ولكن الروائح الكريهة التي كانت تنبعث من دورة المياه الموجودة داخل غرفة التوقيف والتي لم يكن يفصلنا عنها شيء غير قطعة قماش ساترة، كانت تمنعني من استحضارها في خيالي..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان البروتوكول في غرفة التوقيف يقتضي أن يأتي أحد الجنود كل ثماني ساعات تقريبًا وفي يده قائمة بأسماء الرجال الذين انتهت مدة حبسهم، ويُدخل بدلًا عنهم دفعة جديدة..

وفي إحدى الدفعات التي كانت قادمة لتوها وصل رجل من جنسية عربية ما زلت لهذه اللحظة أذكر هيئته جيدًا: كان متوسط الطول ذو كرش بارز، يرتدي لباس تأجير أحد محلات السيارات ويعلّق قلمًا في جيب قميصه العلوي لم يُصادره منه شرطيّ الأمانات..

اقتربتُ منه وقلت بأدب:

- هل أستطيع استعارة القلم لو سمحت؟!

سأل متعجبًا:

- لماذا تريد قلمًا في مثل هذا المكان

قلت جادًا:

- أُريد أن أرسم به خطة للهروب.

أخذت منه القلم وأخرجت من جيبي كل الفواتير التي كان من المفترض أن أقوم بتسليمها ذلك اليوم لمالك القرطاسية وقلبتها على ظهرها الناصع البياض ثم جعلت أكتب عليها قصة أُسلّي بها نفسي حتى أهرب بواسطتها من ذلك الضجر القاتل..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت القصة التي كتبتُها آنذاك تتحدث عن:

«فتاة اسمها (جومانا) تتعرض لخطر داهم فيتدخل (بحر) في اللحظة الأخيرة لإنقاذها، ومع الوقت تنشأ بينهما قصة حُب كبيرة تنتهي بزواج (بحر) منها دون أن يعلم بأنّها "جنية"..»

ورغم أني كنت حينذاك محبوسًا في غرفة تكتظ بالكثير من الناس، وكانت هناك أربعة جدران تُحيط بي من كل الجهات، وباب موصد بقفل وسلسلة وحراس، إلا أنّي بالكتابة كنت قادرًا فعلًا على أن أهرب من كل شيء، متجاوزًا المكان والزمان، مُسافرًا إلى حيث تقع أحداث تلك القصة..

قضيت الأيام الثلاثة تلك وأنا محموم بلذّة الكتابة، وكانت تلك هي أول قصة أكتبها في حياتي، وما كنت أتوقع أبدًا أنّ تلك القصة ستتحول يومًا لعمل أدبي أُطلق عليه فيما بعد اسم: «أبابيل».

لاحقًا وبعد انقضاء 72 ساعة: جاء أحد الجنود يحمل بيده قائمة أسماء المُفرج عنهم، وكان اسمي واحدًا منهم.. ما زلت أذكر كيف أني لم أفرح كثيرًا عندما نطق الجندي اسمي وكيف أني تمنيت دون مبالغة أنْ أبقى في غرفة التوقيف، لأواصل التجول في ذلك العالم الموازي معتطيًا صهوة الكتابة..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لملمتُ أوراق الفواتير التي كتبت عليها القصة وما أن ابتعدت خطوتين من هُناك حتى سمعت أحدًا يهمس من الزاوية:

- ستسقط يومًا من سمائك السابعة، وحينها سأسكنك.

وعندما التفتُّ نحو مصدر الصوت ذاك لم أجد أحدًا، أكملت طريقي معتقدًا بأني كنت أتوهم، غير أني بعد سنوات طويلة من تلك الحادثة سأكتشف بأنّ ذلك الهمس لم يكن إلا نبوءة شيطانة الكتابة..

في الحقيقة: الله لا يُغلق في وجهنا بابًا إلا ويفتح بدلًا عنه أبوابًا كثيرة، ولكنّ المشكلة هي أننا نظل نُحدق في الباب المُغلق بحسرة تُلهينا عن رؤية بقية الأبواب المفتوحة.. لقد أغلق الله باب الحُرية عني لمدة 72 ساعة، وفتح لي بابًا اسمه الكتابة، وأنا أعترف بأنه لولا حادثة غرفة التوقيف تلك، لكنت رُبما أبدًا لم أجد طريقي للكتابة..

***

باتت حياتي متواضعة جدًّا، وبتُّ أخضع لروتين لا يتغير: أذهب للعمل منذ العاشرة صباحًا وأنتهي عند السادسة مساء، ثم أعود للمنزل لأكتب رسالة لسارة، وما أن أنتهي من تسليمها حتى أعود لغرفتي من أجل مواصلة كتابة رواية أبابيل[1]

---

١ لم أكن أكتب لغرض النشر، ولم أتخيل أني سأنشر يومًا، كنت أكتب فقط لأني كنت طوال عمري ضائعًا، وما وجدت نفسي إلا حين وجدت الكتابة..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ورغم الحياة التي قد تبدو مملة بعض الشيء، إلا أني كنت راضيًا بها وكا
كل شيء يسير على ما يرام إلى أن جاء ذلك اليوم الذي عدت فيه من العم
ووجدت والديّ بانتظاري وقد بدت عليهما أمائر الجدية، جلستُ مقابلًا لم
كمُتهم يخضع لجلسة تحقيق، قالت أمي بملامح وجهٍ باكية:

- أبوك يريدك أن تسافر يا أحمد.

وأنا أوزع نظري بينهما: أسافر؟!.. لماذا أسافر؟!

أجاب أبي: للابتعاث، ولبدء حياة جديدة.

- ولكنّي لا أريد تغيير حياتي..

لم أكن حينذاك أريد أن أسافر؛ فأنا لا أرغب في الابتعاد عن سارة،
وعن أمي وعن الوطن الذي يحمل بين جنباته كل ذكرياتي الجميلة.

قالت أمي بلهفة: أرأيت يا عبد الله.. إنّه لا يريد أن يُسـ

قاطعها والدي هامسًا:

- ولكن يا مريم بالله عليكِ إلى متى سأظل أعطيه مصروفًا شهريًا؟!

تدخلتُ مندفعًا: أنت لا تعطيني شيئًا، أنا أعمل وأكسب المال بجهدي

قال أبي: هذا لأنني..

قاطعته أمي قبل أن يكمل: ولكننا اتفقنا على آنك لن تخبره!!

أصرّ أبي: ولكنّه يجب أن يعرف..

تساءلتُ بقلق: أعرف ماذا؟!

قال معترفًا: أنا من يدفع لك مرتبك الشهري في القرطاسية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم أصدق في البداية كلامه، لكنه قال مُبرهنًا:

- لماذا بظنك إذًا يسمح لك مالك القرطاسية بأنْ تبقى طوال الوقت معتكفًا في قسم الكتب الأدبية تقرأ بدون أن يفتح فمه معك؟!

عرفت حينها السر الذي جعل مالك القرطاسية يصبح فجأة طيب القلب معي، لقد كان يسمح لي بأن أقرأ وآخذ الكتب معي للمنزل دون مقابل لأنّ والدي فقط كان يدفع له ثمن كل شيء..

شعرت بحرج شديد إذ أنّي على امتداد عامين كنت أعتقد بأنّي من يعمل ويكسب المال بجهده وعرق جبينه فأكتشف لاحقًا بأنّي كنت مخدوعًا طوال الوقت، قالت أمي تفسر الأمر:

- لقد جاء مالك القرطاسية لوالدك شاكيًا ذات مرة.. يقول بأنك تقضي كل الوقت في القراءة، وبأنه في حاجة ليد نشيطة تساعده في العمل وأنه يعتزم فصالك واستئجار عامل آخر غيرك.. فطلب منْه والدك أن يستبقيك عنده على أن يدفع له مرتبك الشهري كل نهاية شهر..

نظرت لأبي وسألته:

- ولماذا فعلت هذا؟!

أجاب:

- لأنّي كنتُ أعرف بأنّ القراءة ستغير حياتك بشكل أو بآخر.. وفعلًا حدث كما توقعت، لقد غيرت القراءة فيك ما لم تغيره فيك سنوات الدراسة كُلها، وألف محاضرة كنتُ أُلقيها عليك؛ لهذا قررت أنا ووالدتك الآن إعطاءك فرصة ثانية من خلال ابتعاثك للخارج..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ولكنّي لا أرغب في أن أسافر.
- أحيانًا الرغبة لا تكون شرطًا للقيام بالشيء، هُناك أشياء سوف تصادفها في هذه الحياة لن تكون لديك الرغبة فيها، لكنّك ستكون مضطرًّا للقيام بها.

قلت متذرعًا:

- نسبتي في الثانوية لن تسمح لي بالالتحاق بالبعثة..
- لا بأس، سوف تدرس على حسابي أول الأمر، ثم ستضمك المُلحقية هُناك، فهذا ما يفعله الكثير من الطلاب الذين لا تنطبق عليهم شروط البعثة..

لم أتكلم وهممت بالمغادرة، غير أنّ والدي أوقفني قبل أن أغادر:

- مهلًا، إلى أين تذهب؟!
- أحتاج أن أفكر بالأمر

قلتُ ذلك ثم تسللت خارج المنزل ذاهبًا نحو المكان الذي كنت أعرف جيدًا أني أستطيع الهروب إليه كلما ضاقت بي الدنيا.. لقد ذهبت نحو سارة.

***

تسلقتُ الحائط بعد أن تحققت من أنّ أحدًا لا يراني، ثم هبطت في الارتداد الجانبي لفناء العمارة.. أخذت سلم الحديد وقرّبته لأسفل نافذة الشقة الأرضية ثم طرقت الزجاج طرقًا خفيفًا..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لحظات قليلة ثم فُتح زجاج النافذة وأطلّ وجهها من خلف القضبان الحديدية.. كانت ملامحها تبدو شاحبة على غير العادة، وثمّة ابتسامة زائفة ترتسم على ثغرها.. سألتها:

- ما بكِ؟!

- حزينة من أجلك

- هل عرفتِ بأمر السفر؟!

- سمعت والدتك تتحدث لوالدتي..

- لا أعلم ماذا أفعل.. دُليني.

- أظن أنّ عليك أن تذهب؛ فهذه الطريقة الوحيدة التي سوف تضمن لك الشهادة والمستقبل.

- وأنتِ ماذا ستفعلين في غيابي؟

- سأتذكرك، وأكون بخير.

- قد تطول مدة غيابي هُناك.

- لا تقلق لديّ الكثير من رسائلك، سأفتح واحدة كلما اشتقتك

- لا أريد أن أرحل عنكِ.

- ليس أمامك خيار أفضل، يجدر بك أن تسافر لتؤمّن مستقبلك.

قلتُ متشجعًا بعد لحظات من التفكير:

- حسنًا سوف أسافر وأتعلم هُناك، وأعود بشهادة كبيرة وأتزوجكِ، هل تنتظرينني حتى أعود؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أذكر أنها آنذاك بدت أمامي مترددة للغاية ومتذبذبة كمؤشر جهاز تخطيط قلب، لقد بدت في تلك اللحظة وكأنها تخفي علي سرًّا خطيرًا لا تريدني أن أعرفه؛ فحدجتُها بنظرة عميقة محاولًا أن أكتشف في عينيها ذلك السر، ولكنّي ولأول مرة مُذ عرفتها لم أستطع قراءة ما يدور في فؤادها، وشعرت وأنا أقف أمامها بأنها فتاة غريبة لا أعرفها:

- أهناك ما تخبئينه عنّي يا سارة؟!

- لا - همست بتردد: سافر وسأنتظرك حتى تعود.

- أتعدينني بذلك؟!

- ...

- لماذا لا تتكلمين؟.. هل تعدينني أم لا؟!..

خرجت عن صمتها قائلة:

- لا تورطني مع الزمان أرجوك، نحن لا نعرف ما الذي تُخبئه الأقدار لنا.

- ما هذا الكلام الغريب؟!.. لماذا تتكلمين معي بهذه الطريقة؟!

أغمضَتْ عينيها قليلًا، بدا وجهها ذابلًا كوردة داسها المارة فوق الرصيف، كان التردد يُرهقها وبدت أنها كانت تُجاهد لتضبط انفعالاتها، أخذت نفسًا عميقًا ثم همست:

- ربما لأني حزينة لرحيلك..

- لن أذهب إذًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في تلك اللحظة طلبت سارة أمرًا لم يسبق لها أن طلبته من قبل:

- هل أستطيع أن ألمس يدك؟

مددتُ يدي لها من بين قضبان النافذة الحديدية، فأحسستُ بيدٍ ترجف لفرط الخوف تُمسك يدي بقوة وتعتصرها كما لو أنها كانت تقول لها بلغة الإشارة وداعًا إلى الأبد..

قلت:

- أخبريني إن كان هناك شيء لا أعرفه.

- لا شيء - ردت، ثم أضافت: سافر من أجلي.

- ليس قبل أنْ آخذ منكِ وعدًا بالانتظار.

- أعدك.

همست بذلك ثم أرخت قبضتها على يدي، وانسحبت للداخل دون أن تخبرني بالمؤامرة الكبيرة التي كانت تُحاك خلف ظهري..

أما أنا ورغم الشعور الكبير في قلبي والذي ربما كان قد يصل لمرحلة اليقين بأن هناك شيئًا سيئًا على وشك الوقوع، إلا أني اخترت تكذيب ذلك الشعور وتصديق الوعد الذي قطعته لي سارة؛ فالحب هو الإيمان الكامل بالطرف الآخر.. عدت إلى حيث أبي لأخبره بأني موافق.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في صباح اليوم التالي ذهبتُ بمعية والدي لأحد المكاتب المتخصصة بتقديم خدمات إجراءات السفر.. رشَّحَ الموظف لنا عددًا من المُدن الأمريكية المناسبة للدراسة، فاختار والدي منها مدينة سانديغو التابعة لولاية كاليفورنيا بحكم أنّه قد درس فيها سابقًا..

بعد ذلك استعرض لنا الموظف أسماء معاهد اللغة الإنجليزية ذات السمعة الجيدة هُناك، فاخترنا من بينها معهدًا اسمه «EC»[1] يقع في منطقة هادئة مجاورة للبحر تُدعى «لاهويا»..

ثم أخيرًا قطع الموظف لي موعدًا مع سفارة الولايات المتحدة الأمريكية الواقعة على امتداد شارع فلسطين للحصول على التأشيرة.

***

في السفارة: كاد اللقاء مع موظفة التأشيرات أن يتسبب في حرماني من السفر بشكل نهائي؛ وذلك لأنّ لغتي الإنجليزية آنذاك لم تكن جيدة، وقد أوصاني والدي الذي لم يسمح له حرس بوابة أمن السفارة بالدخول معي بأن أبتسم وأجيب بـ «يس» على أيّ سؤال لا أفهمه.

في البداية استطعت بصعوبة شديدة الإجابة على أول ثلاثة أسئلة طرحتها الموظفة، حيث سألتني عن اسمي وعمري والسبب الذي كنت أريد الحصول على التأشيرة من أجله، ولكنّ السؤال الرابع هو الذي كاد أن يتسبب في منعي من السفر..

---

١ «EC San Diego English Language School»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حيث كان سؤالها:

- سيد أحمد، بعد أن تُنهي دراستك.. هل تعتزم البقاء في الولايات المتحدة الأمريكية كشخص مخالف للقوانين والأنظمة؟!

كان من المفترض أن أجيبها بـ«نو».. ولكنّي لم أفهم السؤال فتذكرت نصيحة والدي وابتسمتُ مُجيبًا بـ«يس».. أما الموظفة فإنها صمتت قليلًا تحدق في وجهي قبل أن تقول:

- هل فهمت سؤالي؟

- «يس»

- ولكنّي لا أظن أنك فهمت سؤالي جيدًا؟

- «يس»

- سأعيد عليك السؤال مرة ثانية وأريد منك جوابًا نهائيًا

- «يس»

- بعد أن تُنهي دراستك يا سيد أحمد، هل تعتزم البقاء في الولايات المتحدة الأمريكية كشخص مخالف للقوانين والأنظمة؟!

- «يس»

كان وقتذاك أمام الموظفة ختمان: «أحمر، وأخضر اللون».. وكنتُ أدرك غريزيًا أن الأحمر معناه رفض الحصول على التأشيرة، أما الأخضر فمعناه الموافقة؛ لذلك فإنّي ما أنْ رأيتها تُمسك الختم الأحمر بيدها وتستعد لأن تختم به نموذج الحصول على التأشيرة حتى صرخت بكل صوتي قائلًا: «نووو».. مما استدعى التدخل المباشر لحراس أمن السفارة..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قاموا بإدخالي غرفة صغيرة للتحقيق.. حضر فيها كل من الموظفة التي أجرت معي المقابلة، ومترجم ذي أصول عربية، بالإضافة لجهاز يُشبه الراديو لتسجيل كل كلمة تحدث بين ثلاثتنا.

قام المترجم فورًا بترجمة السؤال الرابع الذي سألته لي الموظفة سابقًا، وما أن فهمتُ المقصود منه حتى أجبت قائلًا: لا.. بالطبع أنا لا أنوي البقاء هناك، سأُنهي الدراسة وأعود فورًا للسعودية..

لكنّ موظفة التأشيرات لم تقتنع بجوابي وقالت للمترجم:

- إنّه يكذب.. لقد سألته إن كان قد فهم سؤالي فأجاب بـ نعم.. لقد غير كلامه الآن فقط كي يحصل على التأشيرة، ولكنّ هذا لن يحدث حتى لو تدخل السفير بنفسه!!

أخبرني المترجم بما قالت، ثم نصحني حفاظًا على كرامتي بأن أعتذر لها وأغادر السفارة قائلًا بأنّها لن تضع ختم الموافقة مهما حدث على أنموذج التأشيرة، وكنت فعلًا سأغادر لولا الفكرة التي فقئت فجأة برأسي:

- اسمع.. اسألها إن كانت مرتبطة أم لا.

نظرت الموظفة للمترجم تنتظره أن يُترجم لها، بينما ابتسم المترجم بوجهها وقال مُستأذنًا: «لحظة من فضلك» ثم التفت إليّ وهمس غاضبًا:

- أين تظن نفسك؟!.. أهذا وقت مثل هذه الأمور؟!.. ثم ألم تنظر للفرق الشاسع بين وجهك ووجهها؟!

- أأنت هنا شامتٌ أم مترجم؟

- مترجم ولكنك تطلب أشياء غريبة!!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ أنا أريد أن أعرف فقط إن كانت قد جربت الحب أم لا.. فإن كان جوابها نعم فربما أستطيع إقناعها، وإن كان جوابها لا فسأخرج مطرودًا من باب هذه السفارة.

ـ أخاف أن أترجم لها سؤالك هذا، فأخرج مطرودًا معك..

ـ لا تقلق لن يحدث لك شيء، اسألها أنت فقط

سألها المترجم إن كانت مرتبطة أم لا، فسألته غاضبة: «ما دخل هذا السؤال بهذه المشكلة؟!».. فأجابها ليُخرج نفسه من الحرج:

ـ لقد قلتُ له ذلك ولكنّه مصرّ على معرفة الجواب..

صمتت الموظفة قليلًا ثم تورد خداها وهي تُجيب قائلة:

ـ نعم أنا حاليًا أعيش قصة حب.. إنّه يُدعى إيليا، وهو حاليًا يعمل في منهاتن.. علاقتي معه تمرُّ بالكثير من التعقيدات والمشاكل، فنحن دائمًا نصل لطرق ذات نهايات مسدودة، لكننا في كل مرة نجد لأنفسنا مخرجًا ننقذ به علاقتنا من النهاية..

وما أن انتهى من ترجمة إجابتها لي، حتى طلبتُ منه أن يسألها: لماذا هما متمسكان ببعضهما طالما أنّ كل هذه المشاكل بينهما.

ـ

ـ ما بك لا تتكلم، ترجم لها سؤالي..

ـ لقد أدخلناك هُنا للتحقيق معك، وليس العكس!!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

همستُ له:

- لا عليك لديّ خطة..

- أخبرني ما الخطة أولًا، وإلا فلن أُترجم لها..

- دعها تتكلم؛ فلا شيء بإمكانه إطفاء غضب امرأة أكثر من الكلا

- أهذه خطتك؟!.. سأُطرد من عملي بسببك!!

- إنّ المرأة تشعر بكثير من الامتنان لمن يُنصت لها.. دعنا فقط نص

وسترى كيف تصبح طيبة معنا، ثق بي إنها رشوة مضمونة..

التفت إليها المترجم على مضض، وسألها غير مقتنع:

- طالما أنّ كل هذه المشاكل بينكما، فلماذا تتمسكان ببعضكما؟

تنهدت بعد قليل وهي تبوح:

- لأنّ كل واحد منّا يخاف الوحدة، أظن أنّ الكثير من الناس يحافظو

على علاقاتهم غير السعيدة، فقط لأنهم يخافون البقاء في وحدة.

أخبرني المترجم بما قالت، فطلبتُ منه شيئًا أخيرًا: وهو أن يسألها عن

مدى شعورها بألم البعد عن حبيبها ذاك، فقالت بأنه رغمًا عن كُل المشاكل

التي بينهما إلا أنها لا تتمنى شيئًا في هذه الدنيا أكثر من أن تركض نحو

لمعانقته..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ابتسم شيء بداخلي وعرفت أنّي حققت الهدف، قلت:

- أنا سأسافر تاركًا هنا فتاة أحبها وتحبني جدًّا.. نحن متمسكان ببعضنا ليس لأننا نخاف البقاء في وحدة، بل لأنّ الحياة ستغدو بلا فائدة إن كان أحدنا لن يعيشها مع الآخر - ثم أردفت: عندما سأصبح في أمريكا لن يكون هُناك شيء سأتمناه في هذه الدنيا أكثر من أن أنهيَ دراستي وأعود للوطن فورًا لأتزوجها..

بعد أن أخبرها المترجم بكل كلمة قلتها، نظرت الموظفة لعينَيّ وكأنها تفتش فيهما عن حبيبها البعيد، ثم قالت كما لو أنّها توجه الكلام إليه:

- مشكلة المرأة هي أنها كُلما وقعت في اختيار الرجل الخطأ، قالت تعزّي نفسها بأنّ الحب أعمى، ولكن في الحقيقة أنتم الرجال غدارون للدرجة أنّ المرأة العمياء نفسها تستطيع أن تتحسس بيديها غدركم..

ثم مدت الموظفة يدًا نحو أحد الأختام، وختمت به نموذج الحصول على التأشيرة، وقالت مبتسمة:

- عمومًا.. أتمنى لك إقامة سعيدة في الولايات المتحدة الأمريكية..

- أتعلمين - قلت وأنا أقف وأرد إليها الابتسامة: إن حدث ذات مرة والتقيت بـ إيليا هُناك فسأخبره بأنّ لديه فتاة رائعة - ثم فتحت باب غرفة التحقيقات، وقلت للمترجم قبل أن أنصرف: لقد أخبرتك بأنّ لدي خطة!!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

8

ضباح الأحد،

23/ نوفمبر/ 2008

صالة المُغادرين/ مطار جدة الدولي.

في ذلك اليوم أذكر أنّي لم أقم بوداع أحد؛ فأنا لا أحب لحظات الوداع، طلبت سيارة أجرة ثم تسللتُ خارج البيت قبل موعد السفر بخمس ساعات، تاركًا خلفي رسالة كتبتُها لأمي وأبي وخالتي هوازن أبرر لهم فيها سبب رحيلي دون السلام عليهم، وتاركًا في نافذة سارة رسالة قصيرة مكتوبًا فيها:

«سأعود يومًا لأخطفكِ بفستانكِ الأبيض، فانتظريني»

مكثتُ في المطار حتى قاربت الساعة العاشرة والثُلث وأُذيعَ الإعلان في مكبرات الصوت، طالبًا من المسافرين التوجه نحو البوابة استعدادًا لصعود الطائرة..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

@book_lovers_s
كتب وروايات تليجرام
@book_lovers_s

- ما تأكدت بأني مخلوق من طين

إلا حين أزهر الجبين الذي وضعتِ عليه قُبلتكِ

قال الوحش ذات مرة

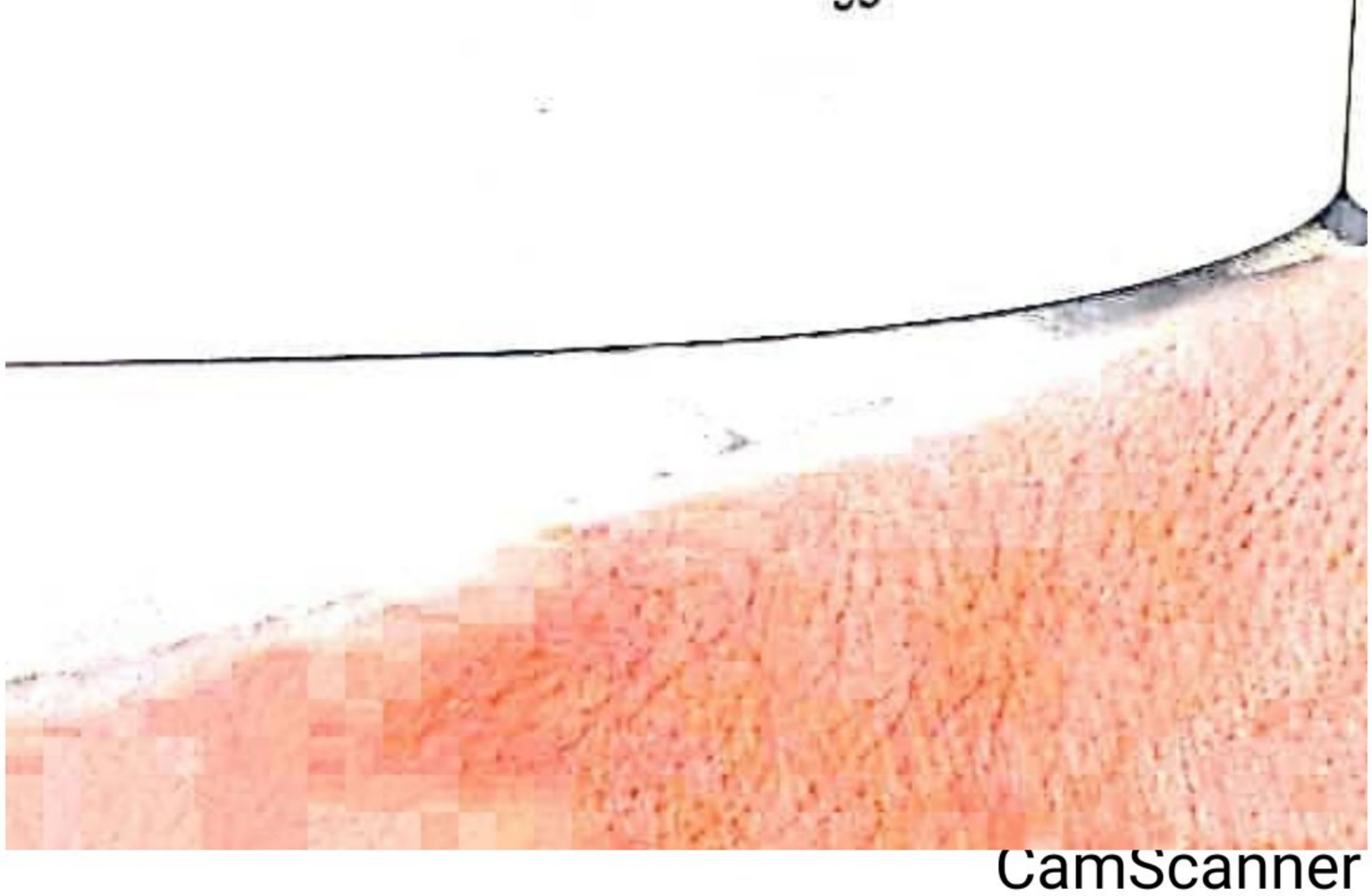

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner